وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد السابع

وقفات تربوية
في ضوء سورة العصر

عبد العزيز بن ناصر الجليل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه
مجانًا
بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

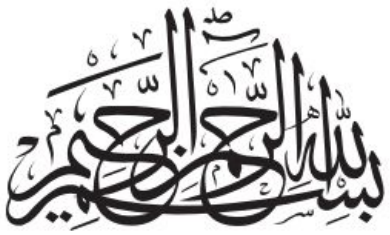
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد

فهذه هي الرسالة الرابعة عشرة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم ، وقد خصَّصتها للكلام على سورة قليلة آياتها عظيمة معانيها ومقاصدها ، ألا وهي سورة العصر ذات الآيات الثلاث ؛ وبهذا فإن هذه الرسالة تختلف عن سابقاتها من الرسائل في كونها تتناول ذكر الوقفات التربوية لثلاث آيات مترابطات مرة واحدة ؛ بينما كانت الوقفات في الرسائل السابقة منصبة على آية واحدة أو بعض آية .

وإن المتأمل في آيات سورة العصر وما تحمل من المعاني الإيمانية والتربوية ؛ ليدرك أهمية الترابط بين آياتها ، وأن الفائدة لا تتم إلا بأن

يتم التناول لجميع آيات هذه السورة العظيمة .

وفيما يلي ذكر بعض النقاط التي تؤكد أهمية دراسة هذه السورة الجليلة ومقاصدها ، وسبب اختيارها ضمن سلسلة الوقفات التربوية :

١- روى الطبراني في الأوسط من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن حصن الدارمي أنه قال : « **كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر** »[(١)].

وهذا الصنيع من أصحاب رسول الله ﷺ يدل على عظم شأن هذه السورة وما تحمله من وصايا عظيمة يتعاهدون عليها ؛ يتعاهدون على الإيمان والصلاح ، ويتعاهدون على التواصي بالحق والتواصي بالصبر وعلى أنهم من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور المتمثل في سورة العصر .

٢- قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة : « قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم [(٢)].

---

(١) الطبراني في الأوسط ٥/٢١٥ (٥١٢٤) ط . دار الحرمين .

(٢) وردت صيغة أخرى لمقولة الشافعي ذكرها ابن كثير فقال : قال الشافعي : لو تدبر =

وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : **إحداها** : معرفة الحق ، **والثانية** : عمله به ، **والثالثة** : تعليمه من لا يحسنه ، **والرابعة** : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر سبحانه وتعالى المراتب الأربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدَّقوا به ؛ فهذه مرتبة .

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هم الذين عملوا بما علموا من الحق ؛ فهذه مرتبة أخرى .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات ؛ فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وكماله

= الناس هذه السورة لوسعتهم .

بإصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل .

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير »[1] أهـ .

٣- في هذه السورة تحديد لمعنى الخسران الحقيقي ، كما أن فيها بيان أصول النجاة والفوز في الدنيا والآخرة ، وإن الضرورة لمعرفة هذه المقومات والعمل بها لتربو فوق كل ضرورة ، وإن الضرورة والحاجة لهذه المعرفة لتظهر بشكل جلي في زماننا اليوم ؛ زمن الغربة الذي أعرضت فيه البشرية عن هذا الخير ، وركنت إلى دنياها ، فحاق بها الشقاء والخسران من كل جانب ، بما في ذلك كثير من المسلمين الذين أعرضوا عن كتاب ربهم وما فيه من النور والهدى والفوز العظيم، وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : « وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر

---

[1] مفتاح دار السعادة ١/٥٨-٥٩ .

الأرض إلا من رحمه الله تعالى ؛ يهولنا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا قبل الآخرة ، يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها ، مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض ، وأكثر المسلمين أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق ممن بعدوا أيضاً عن هذا الخير ، وأعرضوا عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع، لتتعلق [أي هذه البشرية] برايات عنصرية لم تنل تحتها خيراً قط في تاريخها كله ؛ لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله لا شريك له ، المسماة باسم الله لا شريك له...الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل »[1] أهـ.

ونظراً لأهمية هذه السورة وما تضمنته من أصول النجاة السالفة الذكر ، فإن الحديث عن تفاصيل هذه المقومات ومتعلقاتها كما ورد في كتب التفسير والعقائد والأخلاق ليعطيها أهمية أكبر وعناية أشد

---

[1] في ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ ط . الشروق بتصرف يسير .

في تدبرها والالتزام بوصاياها .

وهذا ما سنبينه في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى ؛ ومن هذه المقدمة اليسيرة التي بينت أهمية هذه السورة ووجوب تدبرها والعناية بما ورد فيها من أسباب النجاة فإنه يمكن تقسيم مباحث هذه السورة إلى ما يلي :

المبحث الأول : المعنى الإجمالي للسورة ومقاصدها .

المبحث الثاني : تفسير كلمة (**العصر**) وبيان أهمية الوقت في عمر الإنسان .

المبحث الثالث : أصول النجاة من الخسران كما توضحها السورة :

الأصل الأول : الإيمان .

الأصل الثاني : العمل الصالح .

الأصل الثالث : التواصي بالحق .

الأصل الرابع : التواصي بالصبر .

الخاتمة .

المبحث الأول : البيان المجمل للسورة ومقاصدها

سورة العصر مكية : في قول ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ﷺ ، وعليه الجمهور ، وعِدَادُها في ترتيب النزول الثالثة عشرة ، نزلت بعد الانشراح ، وقبل سورة العاديات ، وهي ثلاث آيات[١].

« وقد تضمنت هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثلاث منهجاً كاملاً للحياة البشرية يرسم طريق النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وأوجزت معالم هذا المنهج في أربعة أمور : الإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلي الدين الحق ، والصبر والثبات عليه ، وكل من أخطأ هذا المنهج أو غفل عنه فإنه هالك خاسر كما هو حال أغلب الناس على مر العصور »[٢].

« وأقسم الله تعالى بـ ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ - وهو الدهر- لانطوائه على تعاجيب الأمور ، ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها فينبه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة .

---

[١] انظر تفسير سورة العصر للدكتور عبد العزيز قارئ ص ١٣ وقد نقله عن الدر المنثور ٣٩٠/٦.

[٢] المصدر السابق ص ١٦ (بتصرف يسير) .

ويدخل في العصر الليل والنهار وعمر الإنسان »[١].

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ وهو حقيقة هامة مخيفة : إن جنس الإنسان الغالب على حاله الخسران ؛ فهو في تجارة رأس ماله فيها عمره ، والغالب أنه يضيعه فيما يضره ولا ينفعه ؛ لذا تجد أكثر الناس هالكين بسبب انشغالهم بحب الدنيا واستغراقهم في طلبها ؛ يصرفون أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها ، فهم مشغولون بالفاني عن الباقي ، ومشتغلون بالضار ، ولاهون عن النافع ؛ ولهذا حق عليهم الخسار وأحاط بهم .

ولا يسلم من هذا الحكم العام على جنس الإنسان إلا القليل ؛ وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ بجوارحهم وفق سنة رسول الله ﷺ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا من أعمالهم الصالحة ، وهو أن يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بالدين الحق الذي هو الإسلام ، وبدعوة الناس إليه ؛ فهم جماعة متعاونون متعاضدون على ذلك ويوصي بعضهم بعضاً بالثبات على ذلك ، والصبر على الطاعة ، وعلى القيام بأمر الله، والدعوة إلى دينه وتحمل الأذى في سبيله، راضين

---

[١] محاسن التأويل للقاسمي باختصار .

آت والبعث قريب ، ثم في **سورة العصر** بيَّن حال الإنسان ـ جنس الإنسان ـ وأنه غلبت عليه الخسارة ؛ فهو بطبعه ونقصانه يُفني عمره فيما لا ينفعه إلا القليل ، وبينت السورة من هم هؤلاء القليل الذين نجوا من ذلك الخسران وسعدوا بالربح العظيم في تجارتهم .

ثم في **سورة الهمزة** عاد يحذر الإنسان من الانشغال بجمع المال؛ فهو بطبيعته مجبول على حبه كما بين في **سورة العاديات** ، وشرح هنا عواقب الاستسلام لهذا الميل الغريزي الذي قد ينتهي به إلى الحطمة التي هي نار الله الموقدة »[1]أهـ .

المسألة الثانية : ما نوع الخسران الذي يحل بالإنسان إذا لم يتصف بأسباب النجاة المذكورة كلها أو بعضها ؟

والجواب على هذه المسألة فيه تفصيل : وذلك أن الخسران مراتب متفاوتة ، **فمنه الخسارة** التامة الأبدية ؛ وذلك لمن لم يأت بالإيمان أو جنس العمل[2]حيث الخلود في النار عياذاً بالله ، **ومنه الخسارة** من وجه دون وجه ؛ وذلك في من حقق مطلق الإيمان لكنه أخل ببعض

---

[1] تفسير سورة العصر د. قارئ ص ١٤،١٥ .

[2] كأن يكون معرضاً متولياً عن طاعة الله عز وجل .

ظاهراً وباطناً بما يقدره الله سبحانه وتعالى عليهم .

فأهل النجاة من الدمار والسلامة من الخسار إنما ظفروا بالفوز والفلاح وربحوا في تجارتهم بتحقيقهم ذلك على مرتبتين :

أولاهما : تكميلهم لأنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، **والأخرى** تكميلهم لغيرهم بالدعوة إلى الإسلام والثبات والصبر عليه[1].

وبعد هذا الاستعراض السريع للمعنى المجمل للسورة يجدر الإشارة إلى **بعض المسائل المهمة المتعلقة بها** :

المسألة الأولى : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها :

ذكر الدكتور عبد العزيز قارئ حفظه الله شيئاً من هذه المناسبة فقال: « أربع سور بينها تلاحم عجيب وحسن اتساق ، ففي **سورة القارعة** بيَّن الله تعالى أهوال يوم القيامة ، وانقسام الناس فيها إلى سعيد ينجو من العذاب ويحظى بالثواب ، فهو في حال طيبة ، وشقي ذهبت أعماله هباءً منثوراً فمصيره إلى النار، ثم في **سورة التكاثر** بين أن من أسباب تردي الأشقياء في نار جهنم اشتغالهم بدنياهم عن دينهم فملأوا موازينهم بالحطام وسودوا صحائفهم بالآثام ، ونبه إلى أن الناس سيسألون عما يعملون وعن النعيم الذي يتمتعون به ؛ فالحساب

---

[1] انظر تفسير سورة العصر د. قارئ ص١٨، ١٩، ٢٠.

العمل من تركٍ لبعض الواجبات أو فعل لبعض المحرمات غير الْمُكَفِّرة أو أخل ببعض الحق ، أو ضعف صبره على ذلك ، فمثل هذا قد عرَّض نفسه لمطلق الخسران ، وإن كان مآله الجنة بسبب ما معه من الإيمان والإذعان .

والحاصل : أن ما كان من هذه الصفات الأربع تركه ينقض الإيمان بالكلية ؛ فإن مرتكبه يقع في الخسران التام المؤبد والعياذ بالله عز وجل .

وما كان منها تركه لا يقدح في أصل الإيمان وإنما في كماله الواجب فإن مرتكبه معرض للخسران والعذاب بوجه من الوجوه حتى يتطهر ويكون في مصاف الرابحين الفائزين .

وعلى هذا فإنه يمكننا تقسيم الناس في الربح والخسران إلى الأقسام التالية :

١- أهل الخسران المطلق ؛ وهم الكفار وكل من لم يتحقق فيه أصل الإيمان .

٢- أهل مطلق الخسران ؛ وهم من تحقق فيه أصل الإيمان وأخلَّ ببعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات ولم يتب من ذلك ، فهذا معرض للخسران المؤقت وليس الخسران التام المؤبد .

٣- الرابحون الناجون من مطلق الخسران؛ وهم المكملون لهذه الصفات

الأربع المذكورة في هذه السورة الجليلة ، فمثل هؤلاء لا يتعرضون للخسران بوجه من الوجوه ، وإنما هم الفائزون الذين يدخلون الجنة بلا عذاب ؛ يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : « **والخسار مراتب** متعددة متفاوتة : قد يكون **خساراً مطلقاً** ، كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم ، وقد يكون **خاسراً من بعض الوجوه** دون بعض ، ولهذ عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان : بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

العمل الصالح : وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق عباده الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق : الذي هو الإيمان والعمل الصالح ؛ أي يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ويُرَّغبه فيه .

التواصي بالصبر : على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه ، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز

بالربح العظيم »[١] أهـ.

ويقول الطاهر بن عاشور في تفسير هذه السورة : « وهذا الخسر متفاوت : فأعظمه وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله تعالى ، وصدق الرسول ﷺ ، ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها ، وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم ؛ إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش ؛ وهو ما فُسر به قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] »[٢] أهـ.

وقال الألوسي : « واستدل المعتزلة بما في هذه السورة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، لأنه لم يستثنى فيها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر ، وأما على كونه مخلداً في النار فلا ، كيف والخسر عام فهو إما بالخلود إن مات كافراً وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً ولم يغفر له ، وإما بفوات

---

[١] تفسير السعدي : تفسير سورة العصر .

[٢] التحرير والتنوير ١٥/٥٣١، ٥٣٢.

الدرجات العاليات إن غفر له . وهو جواب حسن »[١] أهـ.

المسألة الثالثة : إذا كان الإيمان والعمل الصالح أصلي النجاة فما وجه ذكر التواصي بالحق وبالصبر بعدهما ؟

والجواب من وجوه :

الوجه الأول : أن يقال بأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما من الأعمال الصالحة بل من أفضلها ؛ حيث يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق الذي هو دين الإسلام ، متبعين في ذلك ما جاء به الرسولﷺ ؛ فهم جماعة متعاونون يدعون إلى الله تعالى ، ويوصي بعضهم بعضاً بالثبات على الحق والصبر عليه وتحمل الأذى في سبيله ، ولعل مجيء التواصي بالحق والصبر بعد العمل الصالح من باب ذكر الخاص بعد العام ، لإبراز كمال الاعتناء بهما ؛ لأن أهل النجاة من الخسران إنما يحصلون على ذلك بتكميل أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، وتكميل غيرهم بالدعوة إلى الحق والصبر عليه ، بل إن الإيمان والعمل الصالح لا يكملان عند العبد إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

الوجه الثاني: وهو فرع عن الأول؛ وذلك أن الإيمان والعمل الصالح

---

[١] روح المعاني ١٥/٢٩٣.

مع كونهما الأصلين المهمين في النجاة إلا أنهما لا يقومان ولا يستقيم العبد عليهما ويثبت إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ فمن عُدِم عنده التواصي بالحق وعدم عنده الصبر فإن إيمانه وعمله الصالح لا يتماسكان بل يزولان ، فلابد للإيمان والعمل الصالح من حب للحق ودعوة إليه ، ولابد من صبر على تكاليف الإيمان والعمل الصالح ، حيث لابد من الصبر على فعل الواجبات وترك المحرمات وأقدار الله المؤلمة ، فمن عدم الصبر على ذلك كله فلا إيمان له ، فضلاً عن أن يكون له عمل صالح ، كما أن في ذلك إشارة إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في الحفاظ على الإيمان والأعمال الصالحة ، ومدافعة ما يضادهما ويفسدهما من الشرور والفساد .

الوجه الثالث : ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذه الآيات حيث يقول:« وتأمل حكمة القرآن لما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

ولما قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ [التين:٥] وسع الاستثناء وعممه ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين:٦] ولم يقل ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل

الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله ، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر ، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره .

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة ، وقد تكون فرضاً على الأعيان وقد تكون فرضاً على الكفاية ، وقد تكون مستحبة .

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب، **والصبر** يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب ؛ فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ، ولم يأمروا غيرهم به ، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء ، وهو سبحانه إنما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه خسر وأنه ذو خسر كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « **لقد فرطنا في قراريط كثيرة** »[1] ، فهذا نوع تفريط وهو

---

[1] البخاري ك . الجنائز (١٣٢٣) ، (١٣٢٤) ، ومسلم ك . الجنائز (٩٤٥) .

نوع خسر بالنسبة إلى من حصَّل ربح ذلك .

ولما قال في سورة التين : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ ﴾ قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط . ولما كان الإنسان له قوتان : قوة العلم وقوة العمل ، وله حالتان :حالة يأتمر فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره؛ استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح وانقاد لأَمْر غيره له بذلك وأَمَرَ غيره به من الإنسان الذي هو في خسر ؛ فإن العبد له حالتان : حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكماله وتكميله موقوف على **أمرين** :

علم بالحق ، وصبر عليه ؛ فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني من : العلم النافع ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك))[1]أهـ.

---

[1] بدائع التفاسير ٣٢٩/٥ .

المبحث الثاني

تفسير كلمة (العصر) وبيان أهمية الوقت في عمر الإنسان

اختلفت عبارات المفسرين في تفسير ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ الذي أقسم الله تعالى به في هذه السورة ، ولكنها في جملتها لا تضاد بينها ، وإنما هي من باب اختلاف التنوع حيث يشملها معنى كلي واحد كما هو واضح في الأقوال التالية :

• يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : « ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر ، وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العشي ، والمشهور الأول »[١] أهـ.

• وقال في الدر المنثور : « وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ قال : ساعة من ساعات النهار ، كما أخرج ابن المنذر أيضاً عن ابن عباس : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشي »[٢] أهـ.

• وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :« ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ المقسم به

---

[١] تفسير ابن كثير سورة العصر .

[٢] الدر المنثور تفسير سورة العصر .

قيل هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار ، وقيل هو آخر ساعة من ساعاته ، وقيل المراد صلاة العصر ، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح ، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم ؛ قال الشاعر :

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

(يوم وليلة) بدل من (العصران) ، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه ؛ فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما في الضوء والظلام ، والحر والبرد ، وانتشار الحيوان وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها ؛ آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته ؛ فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد ، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً ، تأبى أن يسوي بينهم ، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته

وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر ، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به ؛ وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين »[١]أهـ.

• وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى بعد ما ساق بعض الأقوال في معنى العصر : « والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر والعصر اسم للدهر ، وهو العشي والليل والنهار ، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى ، فكل ما لزمه هذا الاسم أقسم به جل ثناؤه »[٢]أهـ.

ويقول الشوكاني رحمه الله تعالى : « أقسم سبحانه بالعصر ـ وهو الدهر ـ لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ؛ فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر وللنهار عصر »[٣]أهـ.

وبهذا يتضح أن اختيار أكثر المفسرين كالإمام الطبري وابن كثير

---

[١] بدائع التفسير ٥/٣٢٨،٣٢٩ .

[٢] تفسير الطبري سورة العصر .

[٣] فتح القدير تفسير سورة العصر .

وابن القيم رحمهم الله تعالى أن المراد بالعصر هو الدهر والزمان الذي هو ظرف لأعمال بني آدم ، وما يحدث لهم ومنهم ، وغيره من الأقوال هو في حقيقة الأمر داخل في معنى الدهر والزمان .

مناسبة القسم بالعصر الذي هو الدهر لموضوع السورة :

لله عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه ، ولا يجوز للمخلوق أن يقسم إلا بالله عز وجل أو أسمائه وصفاته ، وقسم الله عز وجل بشيء من مخلوقاته يدل على شرفه أو لفت الانتباه إليه ، والتأكيد على أهميته أما من حيث مناسبة المقسم به للسورة فقد سبق فيما مضى قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكر طرفاً من هذه المناسبة وفيما يلي مزيد من أقوال المفسرين في الربط بين الدهر وموضوع السورة :

• يقول الألوسي رحمه الله تعالى : « أقسم الله عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب ، ولذا قيل له أبو العجب ؛ وكأنه تعالى يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها ؛ لتنبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة ، ويعرض عز وجل لما في الإقسام به من التعظيم ؛ بنفي أن يكون له خسران أو دخل فيه كما يزعمه من يضيف الحوادث إليه ، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان إشعار بأنه صفة له لا للزمان كما قيل :

يعيبون الزمان وليس فيه معايب غير أهل الزمان[١]

• ويقول الرازي في التفسير الكبير : « إن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، ... وإن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة ، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف ، وإليه الإشارة بقوله قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٢] وأنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقص هو عين الخسران ، ولذلك قال ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكان المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر .. وعن بعض السلف تعلمت معنى السورة من بائع الثلج ، كان يصيح ويقول : « ارحموا

---

[١] روح المعاني : تفسير سورة العصر .

من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله)) فقلت : هذا معنى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ، ولا يكتسب فإذا هو خاسر))[1] أهـ.

• وقال في أضواء البيان : ((فهذه السورة فيها دفع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً ؛ فإن كان مسيئاً فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره ، وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾ [فصلت:٣٠] فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضي خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الإنسان إذا كان في آخر عمره ، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاته، لم يستطع لذلك سبيلاً ، فيشعر

---

[1] تفسير الرازي ٣٢/٨٠-٨١ .

فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن تكون مربحة له »[١]أهـ.

ويقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى : « والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه : إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ليس هنالك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناجح ، هو ذلك المنهج الذي يرسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار »[٢]أهـ.

وبعد ذكر المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه يحسن بنا ـ إتماماً للفائدة ـ ذكر شيء من مواقف السلف التي تدل على يقظتهم والاستفادة من أوقاتهم في الاستعداد ليوم المعاد ، وزهدهم العظيم في كل ما لا ينفع في الآخرة :

---

(١) أضواء البيان ٩/٤٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٤ .

• وخير ما نبدأ به قول النبي ﷺ : ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**))[١].

قال الحافظ في الفتح : ((قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله (كثير من الناس) إلى أن الذي يوفق لذلك قليل وقال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعتا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، ومن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله عز وجل فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل :

يسر الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل[٢]))

---

[١] صحيح البخاري (ح٦٤١٢)(الفتح ٢٣٣/١١) .

[٢] فتح الباري ٢٣٣/١١ .

صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ، فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد ، فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، إما إلى أمام وإما إلى وراء ، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة ، ما هو إلا مراحل تطوى أسرعَ طيٍّ إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر ، وليس في الطريق واقف البتة ، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ ﴾ [المدثر:٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفاً ، إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض لطلبه .

قلت : لابد من ذلك ، ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجمَّ نفسه ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة

أحسنت نزله وقراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك ، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قراه جال في عينيك ، وهما يومان بمنزلة الأخوين نزل بك أحدهما فأسأت إليه ولم تحسن قراه فيما بينك وبينه ، فجاءك الأخر بعده فقال إني قد جئتك بعد أخي ؛ فإن إحسانك إليَّ يمحو إساءتك إليه ويغفر لك ما صنعت ، فدونك إذ نزلت بك وجئتك بعد أخي المرتحل عنك ، فلقد ظفرت بخلف منه إن عقلت ، فَدَارِكْ ما قد أضعت ، وإن ألحقت الآخر بالأول فما أخلقك أن تهلك بشهادتهما عليك ؛ إن الذي بقى من العمر لا ثمن له ولا عدل ؛ فلو جمعت الدنيا كلها ما عدلت يوماً بقي من عمر صاحبه ، فلا تبع اليوم ولا تعدله من الدنيا بغير ثمنه ، ولا يكونن المقبور أعظم تعظيماً لما في يديك منك ، وهو لك ، فلعمري لو أن مدفوناً في قبره قيل له هذه الدنيا أولها إلى آخرها تجعلها لولدك من بعدك يتنعمون فيها من ورائك فقد كنت وليس لك هم غيرهم ـ أحب إليك أم يوم تترك فيه تعمل لنفسك ؟ لاختار ذلك ، وما كان ليجمع مع اليوم شيئاً إلا اختار اليوم عليه رغبة فيه وتعظيماً له ، بل لو اقتصر على ساعة خُيِّرها وما بين أضعاف ما وصفت لك وأضعافه يكون لسواه إلا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون لغيره ، بل لو اقتصر على كلمة يقولها تكتب له وبين ما وصفت لك وأضعافه لاختار الكلمة الواحدة عليه ، فانتقد

اليوم لنفسك وأبصر الساعة وأعظم الكلمة واحذرالحسرة عند نزول السكرة ، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حجة .

نفعنا الله وإياك بالموعظة ، ورزقنا وإياك خير العواقب ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[١] أهـ

• وقال القاسم بن عساكر عن سُلَيم بن أيوب : « حدثْتُ عنه أنه كان يحاسب نفسه في الأنفاس ، ولا يدع وقتاً يمضي بغير فائدة ؛ إما ينسخ أو يدرِّس أو يقرأ ، وحدثت عنه أنه كان يحرك شفتيه إلى أن يَقُطَّ القلم »[٢]أهـ.

• ويحكي أبو الوفاء علي بن عقيل عن نفسه فيقول : « إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين »[٣]أهـ.

---

(١) حلية الأولياء ١٣٩/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦٤٦/١٧ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ٢١٤/٩ .

• ويقول ابن الجوزي عن نفسه رحمه الله : « لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يغني ، ويتخلله غيبة .

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوَّق إليه واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد؛ فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهازه بفعل الخير كرهت ذلك ، وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غلبت عليه قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق .

ثم أعددت أعمالاً لاتمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد، وبري الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب؛ فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي »[1]

---

[1] صيد الخاطر ص ١٨٤-١٨٥.

• ومن نظم أبي الوليد الباجي[١]:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

وقال الحاكم : « رحلت إلى أبي النضر الطوسي مرتين وسألته متى تتفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى الكثيرة ؟ فقال : جزأت الليل أثلاثاً : فثلث أصنف ، وثلث أنام ، وثلث أقرأ القرآن »[٢]أهـ.

• ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى : « فإذا علم الإنسان ـ وإن بالغ في الجد ـ بأن الموت يقطعه عن العمل عَمِلَ في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ؛ فإن كان له شيء من الدنيا وقف وقفاً وغرس غرساً، وأجرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده فيكون له الأجر، أو أن يصنف كتاباً من العلم ـ فإن تصنيف العالم ولده المخلَّد ـ يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه فينقل من فعله ما يقتدي الغير به »[٣].

• ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في حفظ الوقت : « والقصد أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة ، إذ

---

(١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ٣/١٤٤٠.

(٢) المصدر السابق ٣/١٢٥٢.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٠ .

صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ، فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد ، فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، إما إلى أمام وإما إلى وراء ، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة ، ما هو إلا مراحل تطوى أسرعَ طيٍّ إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر ، وليس في الطريق واقف البتة ، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ ﴾ [المدثر:٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفاً ، إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض لطلبه .

قلت : لابد من ذلك ، ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجمَّ نفسه ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة

فإن « **لكل عمل شِرَّة ولكل شرَّة فترة** »[١].

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخَّره ولابد ، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ؛ نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب وجمز واشتد سعياً ليلحق الركب ، وإن استمر مع داعي التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعي الهوى ، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركاً ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض ، فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه ؛ وإلا فهو في تأخر إلى الممات راجع القهقرى ناكص على عقبيه ، أو مول ظهره ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله »[٢]أهـ.

ويقول في موطن آخر : « فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٨٨، ٢١٠) والطحاوي في مشكل الآثار (٢/٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الترمذي (٢٤٥٣) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كذلك .

(٢) مدارج السالكين ١/٢٦٧ ، ٢٦٨ .

العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته ، فإن عاش عيش البهائم وقطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة كان خير ما قطعه به النوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته »[1] أهـ.

وعن قيمة الوقت وتفاوت أهل اليقظة فيه يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى : « سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه ، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه ، منهم من يكون سيره مستقيماً في ليله ونهاره ، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها ، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها إلا لمصلحة تقترن بالمفضول ، توجب أن يساوي العمل الفاضل ويزيد عليه .

وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ، ونيته بهذا المباح أن يجم نفسه ويتقوى به على الخير فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به ؛ لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة ، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم .

---

[1] الجواب الكافي ص ٢١٣.

ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً لهم مقوماً : يا مناخ البطالين ، يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير ، وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج بن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت ، وأنه رأى مما لابد منه أن ينتابه أناس للزيارة ، وأنه لما رأى ان هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم ، ولا تقطع عليه وقته ؛ مثل تقطيع الأوراق ، وصنع المداد وبري الأقلام التي لا بد له منها لتصنيف العلوم النافعة ، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم .

فقلت : سبحان من مَنَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم ، وبقوة العزيمة على النشاط على الخير ، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه ؛ فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة ، والأخلاق الجميلة ، والتذكر لآلاء الله ونعمه ، ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ، ولذلك الاجتماع ـ بحسب أحوال الناس وطبقاتهم ـ وأنهم وطَّنُوا أنفسهم لهذا الأمر ، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات ، وبرغبتهم إلى الإجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في

إرشادهم ، لحصلوا بذلك خيراً كثيراً ، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية ، وأحوالاً سامية مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد ؛ لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدِّين لطلب العلم من المتعلمين ؛ بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم وعلمهم وجهلهم وإقبالهم وإعراضهم ، وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب لفعله ، وتعطيل الشر وتقليله ، وأن يستعين الله على ذلك .

فمن كانت هذه حاله لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته ، لأن التبرم إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه ومفوتة لمصالحه ، والله الموفق وحده لا شريك له »[1].

---

[1] الفتاوى السعدية ص ٤٩-٥١ .

المبحث الثالث

أصول النجاة الأربعة المذكورة في هذه السورة

لما ذكر الله عز وجل أن جنس الإنسان في خسر وتباب ؛ استثنى منه من اتصف بصفات أربع تعد أصول النجاة والفوز من العذاب والخسران وهذه الصفات هي التي وردت بعد أداة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:٣] فهي إذاً :

١ــ الإيمان .

٢ــ العمل الصالح .

٣ــ التواصي بالحق .

٤ــ التواصي بالصبر .

وسأفرد في المطالب القادمة إن شاء الله لكل أصل من هذه الأصول الأربعة مطلباً أفصل القول فيه ، فأسأله سبحانه التوفيق والعون والسداد .

الأصل الأول : الإيمـــــان

وهذا هو أصل الأصول، والأساس الذي تقوم عليه بقية الأصول وأعمدة الدين ، وبدونه لا ينتفع العبد من عمل ولا قول ـ مهما كان هذا العمل موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ـ فإنه حينئذٍ مردود على صاحبه غير مقبول . ولقد جاء قيد الإيمان في كثير من الآيات المذكور فيها العمل الصالح ، وذلك حتى ينتفع به صاحبه قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] ولكن ما المراد بالإيمان المذكور في الآيات السابقة وفي هذه السورة ؟ إن الجواب على ذلك يوجد فيما أجاب به الرسول ﷺ جبريل عليه السلام حينما سأله في الحديث الطويل فقال : فأخبرني عن الإيمان ؟ فقال الرسول ﷺ : «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره ...**»[1].

---

[1] رواه مسلم في أول كتاب الإيمان رقم (٨) .

هذه هي أركان الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بها ، وإذا جاء الأمر بالإيمان مطلقاً فإنه يتوجه إلى هذه الأركان الستة التي وردت في حديث جيريل عليه السلام .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل ذكر جلٍّ هذه الأركان ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:١٣٦] وهذه هي الأركان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام ماعدا ركن القدر فهو داخل في الإيمان بالله عز وجل وهو من لوازم ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

إذاً فإن معنى قوله تعالى في سورة العصر: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يراد

منه الذين آمنوا بأركان الإيمان الستة :

١ــ الإيمــان بالله . ٢ــ وملائكته .

٣ــ وكتبه . ٤ــ ورســـله .

٥ــ واليوم الآخر. ٦ــ والقدر خيره وشره .

وعلى هذا فإن الحديث عن هذا الأصل العظيم من أصول النجاة يتطلب التفصيل في كل ركن من أركانه ، وما معنى الإيمان بكل ركن حسبما جاءنا عن رسول الله ﷺ وفهمه صحابته الكرام ﷺ ؟

ولكن قبل الدخول في تفصيل المعنى المراد من الإيمان بكل ركن من هذه الأركان الستة وما يقتضيه من لوازم ومقتضيات ، فإنه ينبغي الكلام على مفهوم كلمة (**الإيمان**) نفسها ، وما هو المعنى الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة وفهم الصحابة لكلمة الإيمان ؟

تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة :

ورد عن السلف من الصحابة والتابعين عدة تعريفات للإيمان في بعضها إجمال وفي البعض الآخر تفصيل ، لكنها كلها ترجع إلى معنى واحد سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . ومن أشهر هذه التعريفات :

قولهم : إن الإيمان قول وعمل .

وقولهم : إنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح .

وتارة يقولون هو : قول وعمل ونية .

وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية واتباع سنة .

وكل هذه التعريفات صحيحة وليس بينها اختلاف في المعنى كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله : « **إذا قالوا: قول وعمل** فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً ، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ، ونحو ذلك إذا أطلق .

والمقصود هنا أن من قال من السلف : الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح .

ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر ، أو خاف ذلك ، فزاد الاعتقاد بالقلب ، **ومن قال : قول وعمل ونية** : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، **ومن زاد اتباع السنة** فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة أقسام : فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو ؟ فقال : « **قول وعمل**

ونية وسنـــة ، لأنه إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق ، وإذاكان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة »[١]أهـ.

والتعريف المختار الذي يفيد الشمولية لأجزاء الإيمان هو القول المعروف عن متقدمي السلف وهو أنه (**قول وعمـــل**) ويتمحص من هذا التعريف أن الإيمان يقوم على أربعة أجزاء إذا انتفى واحد منها انتفى الإيمان ؛ ألا وهي :

١- قول القلب (اعتقاده وتصديقه) .

٢- عمل القلب (إذعانه وقبوله ومحبته) .

٣- قول اللسان .

٤- عمل الجوارح .

وبهذا يتضح أن تعريف الإيمان وحقيقته يتضمن الآتي :

أ - **قول القلب** وهو الاعتقاد والإقرار[٢]والتصديق فلا بد من تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به بالجملة وعلى الغيب فإذا زال تصديق القلب زالت معه بقية الأجزاء .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/١٧٠-١٧١ بتصرف واختصار يسيرين .

(٢) الإقرار الشرعي يتضمن التصديق المنافي للتكذيب ، والالتزام المنافي للرد معاً، والبعض يستعمله في هذا المقام على معنى التصديق فقط ؛ والأول أحسن .

ب – عمل القلب : وهو إذعانه واستسلامه وقبوله المستلزم لآثار ذلك مثل: الإخلاص والحب والخوف والرجاء والتعظيم وغيرها .

« وإذا زال عمل القلب بالكلية مع اعتقاد الصدق ، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب »[١]أهـ.

وينبه شيخ الإسلام رحمه الله على هذا الجزء العظيم من الإيمان فيقول : « إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق ، وإنما هو الإقرار والطمأنينة ، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط ، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر ، وكلام الله خبر وأمر ، فالخبر يستوجب تصديق المخبر ، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل القلب ، وجماعه الخضوع والانقياد للآمر ، وإن لم يفعل المأمور به ، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب ، وهو الطمأنينة والإقرار ، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة ، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد »[٢]أهـ.

---

(١) كتاب الصلاة لابن القيم ص ٥٤ .

(٢) الصارم المسلول ٥١٩ .

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « كل مسألة علمية فإنه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه ، وذلك عمل بل هو أصل العمل ، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان ، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال ، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه ، فإن كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكين فيه ، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به والرضا وإرادته ، والموالاة والمعاداة عليه ، فلا تهمل هذا الموضوع فإنه مهم جداً به تعرف حقيقة الإيمان »[1] أهـ.

ومما سبق يتبين أهمية عمل القلب وأنه لب الإيمان وحقيقته ، كما يتبين لنا ضلال المرجئة من الجهمية عندما ظنوا أن الإيمان يكون تاماً بدون عمل القلب .

كما يتبين لنا غلط جميع المرجئة عندما ظنوا أن الإيمان الذي في القلب القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر؛ والذي هو دلالة على انقياد الباطن من عدمه .

كما يتبين لنا ضلال مرجئة الكرَّامية عندما ظنوا أن الإيمان هو

---

[1] مختصر الصواعق المرسلة ٢/٤٢٠ .

الإقرار باللسان فقط ؛ وإن انتفى عنده التصديق والإذعان الباطن .

وهذا المذهب يضاده كفر المنافقين الذين وقع منهم الإقرار في الظاهر ولكن انتفى عنهم الإذعان لعدم وجود التصديق ولوازمه في القلب .

جـ ـ **قول اللسان** : وهو النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمهما لأنهما الأصل في ثبوت وصف الإيمان في الظاهر ، فمن امتنع من النطق بالشهادتين دون عذر شرعي كتقية أو بكم ونحوهما فلا يصح إيمانه ، ولو كان يعتقد الإيمان بقلبه ، ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمناً كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان »[1] أهـ.

ويقول في موطن آخر : « وكذلك لو قيل إن رجلاً يشهد أن محمداً رسول الله باطناً وظاهراً ، وقد طلب منه ذلك وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمداً رسول الله ، ولهذا كان القول الظاهر من

---

[1] مجموع الفتاوى ١٣٧/٧ .

الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية »[1]أهـ.

د ـ **أعمال الجوارح** : والمقصود هنا بأعمال الجوارح بيان المعنى الشرعي للإيمان ، وما يتركب منه ، وهو في مقابلة ما درج عليه المرجئة من فصلهم العمل عن الإيمان خلافاً لأهل السنة القائلين بأن نفس الأعمال هي في الحقيقة أجزاء للإيمان ، كما دلت على هذا نصوص الكتاب والسنة ، بل خالفوا في ذلك حتى مرجئة الفقهاء القائلين بأن الأعمال هي ثمار الإيمان لا هو ، ومن هذا الوجه فأعمال الجوارح هي الركن الرابع من أركان مسمى الإيمان فكما يجب على العباد أن يصدقوا الرسل عليهم السلام ، فعليهم أن يلتزموا طاعتهم فيما أمروا فيلتزموا بأن العمل عليهم إذا جاء وقته .

ومن هذا الوجه احتج الأئمة أحمد والشافعي وأبو ثور وغيرهم على المرجئة بمثل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ

---

[1] مجموع الفتاوى ٢١٩/٧ .

ٱلْقَيِّمَةِ ۝ ﴾ [البينة:٥] وقال الحميدي في من قال : « **من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت ؛ أو يصلي مستدبر القبلة فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً** »

قال : **هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين قال الله عز وجل** : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝ ﴾ »[1] .أهـ

كذا قال الإمام أحمد رحمه الله في رواية حنبل عنه قال : « **سمعت أبا عبد الله يقول من قال هذا فقد كفر ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به** »[2] .أهـ

وهذه المسألة بخلاف مسألة ترك آحاد الأعمال مع بقاء الإذعان والقبول فلا ينقض هذا الإيمان من التروك إلا ما دلت الأدلة على أن هذا الترك مكفر بخصوصه ، مثل ترك الصلاة على الصحيح من قولي العلماء ، ومثل ترك الحكم بما أنزل الله عز وجل إذا كان على وجه التبديل .

لكن مما سبق من كلام الحميدي وأحمد وغيرهما ؛ يظهر أنه يمتنع أن

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥/٩٥٧ .

(٢) المصدر السابق .

يكون مع الرجل إيمان وتصديق ؛ بينما هو ممتنع من جنس العمل بالكلية وذلك لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ولازمة لها ويقرر شيخ الإسلام هذا المعنى فيقول : « فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر ، والعمل بالإيمان المطلق ، كما قال أئمة أهل الحديث : قول وعمل ؛ قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له ، متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد »[1] .

ويقول رحمه الله في موطن آخر : « من الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً - إيماناً ثابتاً في قلبه - بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم من رمضان ، ولا يؤدي زكاة ، ولا يحج إلى بيته ؛ فهذا ممتنع ، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة ، لا مع إيمان صحيح ، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار ؛كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ ﴾ [القلم:٤٢-٤٣]»[2] اهـ.

---

[1] مجموع الفتاوى ١٨٧/٧.

[2] مجموع الفتاوى ٦١١/٧ .

وعلاقة الإيمان بالعمل مسألة كبيرة هي فرق بين أهل السنة وعامة المرجئة من وجه ، وبين أهل السنة والخوارج من وجه آخر .

فإذا تقرر أن أعمال الجوارح من أجزاء الإيمان ، وأن من انتفى عنه جنس العمل بالكلية فقد انتفى عنه الإيمان ؛ يتبين لنا غلط الجهمية وضلالهم حيث زعموا أن الإيمان مجرد معرفة قلبية بالله تعالى ، وإن لم يكن هناك قول باللسان ولا عمل بالجوارح ، كما يتبين غلط عموم المرجئة الذين فصلوا العمل عن الإيمان فلم يجعلوه شطراً منه .

ويتبين لنا كذلك ضلال الخوارج الذين لم يفرقوا بين الأعمال فجعلوها كلها شرطاً في صحة الإيمان وأن من ترك ولو واجباً واحداً أو فعل محرماً فهو كافر مخلد في النار لو مات بدون توبة .

أما أهل السنة فقد فرقوا بين آحاد الأعمال وميزوا بينها ؛ فمنها ما هو مكفر كما تقدم ، ومنها ما يعد تاركه مفرطاً في كمال الإيمان الواجب؛ فيكون معه إيمان ناقص بحسب ما ترك من الواجب أو فعل من المحرم ، ومنها ما يعد تاركه مفرطاً في كمال الإيمان المستحب .

وبهذا التلخيص السريع لمعنى الإيمان يتبين لنا حقيقة الإيمان وأركانه وما معنى كونه قولاً وعملاً ، وأن المنهج الحق هو ما هدى الله عز وجل أهل السنة والجماعة إليه ، والذي هو مذهب الصحابة

ﷺ ومن تبعهم بإحسان .

وتبقى مسألة مهمة لها علاقة بموضوع الإيمان وتعريفه ألا وهي :

تعريف الكفر المضاد للإيمـــــان : مادام أن حقيقة الإيمان وأجزاءه الأربعة قد تجلت والحمد لله ؛ فإن الوصول إلى معرفة حقيقة الكفر أصبحت سهلة وميسرة ؛ فهي باختصار : تخلف جزء من أجزاء الإيمان المذكورة آنفاً أو الإتيان بما يضادها .

وأصل الكفر : تغطية الشيء ، وسمي الزارع كافراً لتغطيته الحب .

وأما تعريفه اصطلاحاً فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « الكفر عدم الإيمان بالله ورسله ، سواءً كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب ، أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة »[1]أهـ.

ويقول في موطن آخر : « إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به ، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه ؛ مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم »[2]أهـ.

---

[1] مجموع الفتاوى ١٢/٣٣٥ .

[2] درء تعارض العقل والنقل ١٠/٢٤٢ .

ومما سبق من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى نستخلص ((أن الكفر- وهو نقيض الإيمان - قد يكون تكذيباً في القلب ؛ فهو مناقض لقول القلب - وهو التصديق - وقد يكون الكفر عملاً قلبياً كبغض الله تعالى أو آياته أو رسوله ﷺ ؛ والذي يناقض الحب الإيماني، وهو آكد أعمال القلوب وأهمها .

كما أن الكفر يكون قولاً ظاهراً يناقض قول اللسان ونطقه بالشهادتين .

وتارة يكون عملاً ظاهراً ؛ كالإعراض عن دين الله تعالى ، والتولي عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ بالكلية ، وهو بهذا يناقض عمل الجوارح القائم على الانقياد والخضوع والقبول لدين الله تعالى))[1] أهـ.

تنبيهان :

التنبيه الأول : إذا ورد الإيمان مقروناً بالإسلام أو العمل الصالح فإن معنى الإيمان ينصرف إلى ما في القلب من الإقرار والاعتقاد والإذعان كما في هذه السورة ، ويكون الإسلام والعمل الصالح هو ما ظهر على الجوارح ؛ أما إذا أتى الإيمان مفرداً فإنه يشمل الاعتقاد الباطن والعمل الظاهر .

---

[1] نواقض الإيمان القوليه والعملية د . عبد العزيز عبد اللطيف ص ٣٨ بتصرف يسير .

فمسمى الإيمان يختلف بحسب الاقتران والافتراق ، وسأفصل القول في ذلك عند الكلام عن العمل الصالح إن شاء الله تعالى .

التنبيه الثاني : لسائل أن يسأل فيقول : ما علاقة الكلام عن الإيمان وحقيقته ومعناه ، وعن الكفر ومعناه بموضوع السورة والإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؟

والجواب واضح إن شاء الله تعالى ، لأن الحديث عن تعريف الإيمان وحقيقته ؛ وما يضاده من الكفر بأنواعه من المهم جداً معرفته قبل الدخول في تفصيل أركان الإيمان الستة ، وذلك حتى يعرف العبد ما معنى كونه مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وللتنبيه أيضاً على أن الإيمان بهذه الأركان ليس مجرد الإقرار والتصديق بها ، وإنما كما مر بنا في حقيقة الإيمان أنه قول القلب وتصديقه ، وعمله وإذعانه وقبوله ، ونطق باللسان وعمل بالجوارح .

وحيث إن الإيمان بكل ركن من الأركان الستة له لوازم ومقتضيات وأعمال وثمرات ، كما أن له نواقضه وما يهدمه ويضاده، فإن هذا ما سيتم بيانه على وجه الاختصار في الفقرات القادمة إن شاء الله تعالى .

أركـــان الإيـــمان

الركن الأول : الإيمان بالله عز وجل

يتضمن الإيمان بالله عز وجل أربعة أمور:

١ – الإيمان بوجوده سبحانه .

٢ – الإيمان بربوبيته سبحانه .

٣ – الإيمان بألوهيته سبحانه .

٤ – الإيمان بأسمائه وصفاته سبحانه .

أولاً : الإيمان بوجود الله عز وجل :

وهذا الجانب من الإيمان بالله تعالى مستقر في الفطر لا يحتاج إلى تدليل لأن كل ما يحيط الإنسان ويراه من حوله دال على وجوده عز وجل وتدبيره ، ولا يماري في ذلك أحد إلا مغالط مكابر صاحب هوى ينكر ذلك بلسانه وقلبه مستيقن مقر مصدق ، ومع أن البراهين والأدلة على ذلك لا تحصى ، ولا يحتاج الأمر إلى ذكرها ؛ إلا أنه يحسن ذكر أصول الأدلة على ذلك ولو بشكل مختصر ؛ وذلك فيما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله عن هذه الأدلة بقوله :

«أ – **الدليل العقلي** : حيث إن هذا الكون الذي أمامنا ونشاهده على هذا النظام البديع الذي لا يمكن أن يضطرب ولا يتصادم ؛ بل

هو في غاية ما يكون من النظام ، فهل يعقل أن هذا الكون العظيم بهذا النظام البديع يكون خالقاً لنفسه ؟ كلا ولا يعقل أيضاً أن يكون هذا الكون العظيم وجد صدفة ، لأنه على نظام بديع مطرد ، وما جاء صدفة لا يطرد ... وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل العقلي بقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور:٣٥] وسئل أعرابي فقيل له : بما عرفت ربك ؟ والأعرابي لا يعرف إلا ما حوله ، فقال : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير ؟ بلى .

ومما يدخل في الدليل العقلي تأمل المعجزات التي يجريها الله عز وجل على يد أنبيائه ويخرق لهم العادات ، فمن ذا الذي يفعل ذلك إلا الله عز وجل ، وكذلك ما نشاهده من إجابة الدعاء ؛ فالإنسان يدعو الله عز وجل ويقول يا الله فيجيب الله دعاءه ويكشف سوءه ، إذاً هناك رب سمع دعاءه وأجابه ، وما أكثر ما يقرأ في كتاب الله تعالى أنه استجاب لأنبيائه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦] وقوله عز وجل: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ

ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء:٨٣- ٨٤] والآيات في هذا كثيرة والواقع يشهد بهذا .

ب – **الدليل الفطري** : فالاعتقاد بوجود الله عز وجل مركوز في الفطر ، فما أن يصيب الإنسان مصيبة فيها هلاكه إلا قال (يا ألله) ففطرة الإنسان تدل على وجود رب العالمين ؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

جـ ـ **الدليل الشرعي** : وهذا كثير ؛ فكل الشرع المطهر إذا تأمله الإنسان علم أن الذي أنزله هو الرب عز وجل ؛ فائتلاف القرآن وعدم تناقضه ، وتصديق بعضه بعضاً ، وعجز الثقلين عن الإتيان ولو بآية واحدة ، كل ذلك يدل على أن القرآن نزل من عند الله عز وجل . وكونه موافقاً تماماً لمصالح العباد دليل على أنه من عند الله عز وجل))[1]أهـ.

---

[1] باختصار وشيء من التصرف من مجموعة دروس وفتاوى الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين ١/٢٢-٢٤ .

ثانياً : الإيمان بربوبيته سبحانه :

وهو توحيد الله عز وجل بأفعاله لا شريك له ولا ند ولا ظهير ولا معين ، وبمعنى آخر هو: الإيمان بأنه سبحانه الخالق الرازق المحيي المميت، المدبر لجميع العوالم ، والمالك لأمرها ، والمتصرف فيها وحده لا شريك له ، قال الله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٧] وقال تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] وقال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:٥]، وكما أنه المتفرد بالخلق والملك فهو المتفرد سبحانه بالتدبير والقهر ؛ قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ﴾ [السجدة:٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٨] . وهذا النوع من الإيمان قد أقر به كثير من المشركين كما ورد ذلك في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ ﴾ [يونس:٣١] ومع ذلك لم ينفعهم هذا الإيمان وبقوا مشركين ؛ لأنهم لم يؤمنوا بما يستلزمه إيمانهم بربوبية الله عز وجل ؛ ألا وهو إيمانهم بألوهيته سبحانه وعبادته وحده لا شريك له .

ثالثاً : الإيمان بألوهيته سبحانه :

وهو الإيمان بأنه سبحانه الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه ، فلا يشاركه في هذا الحق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ومن أجله بعثت الرسل وأنزلت الكتب ، وهو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .والإيمان بألوهية الله عز وجل يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته سبحانه ، ولا يكون العبد مؤمناً حتى يفرد ربه سبحانه بالألوهية ؛ فإن لم يفرده سبحانه بالعبادة وعبد معه غيره فلا يكون مؤمناً بالله تعالى ولو آمن بربوبيته سبحانه .

وهو توحيد الله عز وجل بأفعال العباد من : السجود ، والركوع والذبح ، والنذر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والاستعانة والاستغاثة ، والطاعة ، والاتباع إلى غير ذلك ؛ قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢] ـ وليس المقام هنا مقام التفصيل في أنواع العبادة وأدلتها

والشرك وأنواعه[١]. كما يدخل في الإيمان بألوهية الله عز وجل دخولاً أولياً التحاكم إلى شرعه المبرء من الجهل والهوى، ورفض حكم ما سواه؛ مع الرضى والتسليم لحكمه سبحانه ، وعدم الرضا بحكم من سواه ، فإن من بدل شرع الله عز وجل أو رفض التحاكم إليه عالماً بذلك فلا حظ له في الإيمان بالله عز وجل ؛ لأن من أخص خصائص الألوهية قبول حكم الله عز وجل ورفض ما سواه ، بل إن أصل شرك المشركين هو رفضهم لما أنزل الله عز وجل من التوحيد والإيمان والأحكام واكتفاؤهم بما كان عليه آباؤهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة:١٠٤] .

وبقي أمر ثالث لا يصح الإيمان بألوهية الله عز وجل إلا به ألا، وهو البراءة من الشرك والمشركين والكفر والكافرين ، وانطواء القلب على بغضهم وعداوتهم وعدم توليهم ونصرتهم ، وإظهار ذلك قدر الاستطاعة؛ إذ لاينفع العبد إفراد الله عز وجل بالعبادة وهو لم يتبرأ من الشرك وأهله ، وهذا معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ إذ هي

---

[١] لتفصيل ذلك انظر فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله .

قائمة على نفي ما يعبد من دون الله عز وجل والكفر به ، وإثبات العبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

رابعاً : الإيمان بأسمائه وصفاته :

وهو الإيمان بما أثبت الله سبحانه لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء بلا تعطيل ولا تحريف ، وأن ننزه هذا الإثبات عن التمثيل والتكييف ؛ حيث إن الإيمان بالأسماء والصفات عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان **يقوم على ثلاثة أصول** :

الأول : الإثبات : قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] وجاء في القرآن والسنة أسماء لله عز وجل وصفات مثل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

الثاني : التنزيه : أي تنزيه الله عز وجل عن مماثلة أحد من خلقه له في أسمائه وصفاته ؛ حيث له سبحانه الأسماء والصفات التي تليق بعظمته وجلاله وسلطانه ؛ قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ أي الوصف الأكمل ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ

﴿ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ .

الثالث : قطع الطمع في إدراك الكيفية والماهية ، وقصور العقول عن الإحاطة بذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ .

وبفهم هذه الأصول الثلاثة والعمل بها يسلم العبد من الانحرافات التي عصفت بكثير من أهل البدع ، حيث حَكَّموا عقولهم الفاسدة وجاءوا بما لم يأت به الرسول ﷺ وصحبه الكرام ، حيث ذهبت طائفة منهم إلى إنكار جميع الأسماء والصفات ـ وهم المعطلة الجهمية ـ وطائفة أثبتت الأسماء دون الصفات ـ وهم المعتزلة ـ حيث قالوا إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر ، طائفة أثبتت الأسماء وبعض الصفات ـ وهم الأشعرية ـ ، حيث أثبتوا جميع الأسماء وسبعاً من الصفات ، وأوَّلوا الباقي ، والسبع هي : الحياة والعلم و القدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام [1].

والإيمان بالأسماء والصفات يقتضي فهمها ودعاء الله تعالى بها ، والتعبد له سبحانه بها ، وأن يقوم في القلب تعظيمها ومحبة من هي له

---

[1] انظر تفصيل القول في هذه المسائل منهج دراسة الأسماء والصفات للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، ورسالة القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالى .

سبحانه ، والخوف منه ، ورجاؤه والتعلق به ، ومراقبته في السر والعلن؛ وأن يظهر أثر كل اسم وصفة له سبحانه في قلب العبد وعلى جوارحه ؛ وإلا فما قيمة الإيمان بدون ذلك .

من نواقض الإيمان بالله تعالى :

وإتماماً للفائدة يحسن ذكر أهم نواقض الإيمان بالله تعالى ، حتى تُحذر وتجتنب ليسلم للعبد إيمانه بالله تعالى ـ الذي هو أصل الأصول ـ للنجاة من الخسران في الدنيا والآخرة كما جاء في هذه السورة[1] .

فمن نواقض الإيمان بالله عز وجل ما يلي :

١- إنكار وجوده سبحانه وإحالة الحوادث والحادثات إلى الطبيعة أوالدهر أو المصادفة والقول بقدم العالم ؛ وهذا الناقض وإن كان لا يقول به أحد عن يقين وقناعة ؛ لكن هناك من يكابر ويجحد ذلك وقلبه مستيقن بوجود الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤] .

٢- إنكار ربوبيته عز وجل لجميع الخلق ؛ بأن يجعل مع الله عز

---

[1] لمزيد التفصيل حول نواقض الإيمان انظر كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية للدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف، ونواقض الإيمان الاعتقادية للدكتور محمد الوهيبي.

وجل شريكاً له في أفعاله كالخلق والرزق وغيرها ، ولذلك صور متعددة منها :

• شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

• ومنها شرك القائلين بوحدة الوجود الذين يزعمون أن الله تعالى هو عين الخلق .

• ومنها شرك من ادعى أن الكواكب العلوية تدبر أمر العالم السفلي كمشركي الصابئة .

• ومنها شرك النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة وأن عيسى هو ابن الله تعالى الله ؛ عما يقولون علواً كبيراً .

• ومنها شرك الرافضة وغلاة الصوفية ، واعتقادهم في بعض الأولياء أنه يحيي ويميت ويشفي المرضى ، وأن ذرات الكون تخضع لهم، كما صرح بذلك الخميني إمام الرافضة المعاصرين في كتابه الحكومة الإسلامية .

• ومنها المبدِّل لشرع الله عز وجل بشرع يضعه للناس ليتحاكموا إليه ؛ حيث جعل نفسه حاكماً من دون الله تعالى ، والله

عـــز وجـــل يقـــول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾ [يوسف:٤٠] وهذا شرك في الربوبية .

٣- إنكار ألوهية الله عز وجل؛ وذلك بأن يجعل مع الله عز وجل شريكاً في العبادة والطلب والقصد ، وهذا هو الغالب على شرك المشركين في الأولين والآخرين ، وهو الغالب على شرك القبوريين في هذا الزمان مثل :

• من يعبد غير الله عز وجل ويستغيث به ، ويدعوه ويستعين به من دون الله تعالى ويلجأ إليه في جلب النفع ودفع الضر ، ومن يذبح وينذر لغير الله عز وجل ..الخ .

• ومن لم يتبرأ من الشرك وأهله ولم يكفر بما يعبد من دون الله .

• ومن رفض الحكم بما أنزل الله عز وجل ، أو رضي بالحكم بغير ما أنزل الله تعالى .

• ومن سب الله عز وجل أو استهزأ بحكمه .

٤- إنكار شيء من أسماء الله عز وجل أو صفاته سواء ثبتت في الكتاب أوالسنة ، والإنكار كما يقول الشيخ صالح بن عثيمين حفظه الله تعالى نوعان :

« • الأول إنكار تكذيب : وهذا كفر بلا شك ؛ فلو أن أحداً أنكر

شيئاً من أسماء الله تعالى ، أوصفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة ؛ مثل أن يقول ليس لله يد فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأن تكذيب خبر الله ورسوله ﷺ كفر يخرج عن الملة .

• الثاني إنكار تأويل: وهو أن لا يجحدها ولكن يؤولها وهذا نوعان :

١- أن يكون لهذا التأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لا يوجب كفراً .

٢- أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية فهذا موجب للكفر؛ لأنه نفاها نفياً مطلقاً فهو مكذب حقيقة ، فلو قال في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] المراد بيديه السماوات والأرض فهو كافر؛ لأنه لا يصح في اللغة العربية ، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر مكذب ، لكن إن قال المراد باليد النعمة أو القوة فلا يكفر[١] ؛ لأن اليد في اللغة تطلق على النعمة »[٢].

• كما يضاد ويناقض توحيد الأسماء والصفات الشرك والإلحاد في أسمائه وصفاته ، فالشرك في الصفات يكون باتخاذ شريك أو ند مع

---

[١] بل هو مبتدع لوجود الشبهة .

[٢] المجموع الثمين ٢/٦٢، ٦٣ .

الله تعالى عن ذلك ، وأما الإلحاد في أسمائه فكما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « الإلحاد في أسمائه هو العدول بها وحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت .. وهو أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً .

الثالث : وصفه تعالى بما يتعالى عنه ويتقدس عنه من النقائص كقول أخباث اليهود إنه فقير؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها ؛ كقول من يقول من المعتزلة وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانٍ .

الخامس : تشبيه صفاته بصفات خلقه؛ تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً »[1].

---

[1] بدائع الفوائد ١/١٩٠-١٩٢ باختصار نقلاً عن نواقض الإيمان القولية والعملية ص١١٨.

الركن الثاني من أركان الإيمان

الإيـــمـــان بالـــمـــلائكـــة

وهو الإقرار الجازم بوجود عالم غيبي ذكرهم الله عز وجل في كتابه، وجاء ذكرهم على لسان رسوله ﷺ اسمهم الملائكة ؛ والملائكة جمع ملك ، يجب الإيمان بكل ما ورد في القرآن والسنة الصحيحة من أوصافهم واسمائهم ووظائفهم وذلك حسب ما يلي[1] :

• هم خلق من خلق الله تعالى خُلقوا من نور ، وهم كرام بررة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ولذا يجب محبتهم وإجلالهم .

• هم عبيد من عبيد الله تعالى مربوبون لله عز، وجل وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال عنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل:٥٠] وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الأنبياء:٢٩] .

• الإيمان بما ورد من أسمائهم في القرآن والسنة ؛ كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومالك ، ومنكر ونكير ـ عليهم الصلاة

---

[1] لمعرفة تفاصيل الأدلة على ذلك يرجع إلى كتاب معارج القبول .

والسلام -، وأن بعضهم أفضل من بعض وأفضل الملائكة **جبريل** عليه السلام.

• نؤمن بأن لهم وظائف قد كلفهم الله بها : **فجبريل** عليه السلام موكل بإنزال الوحي على الرسل كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]

وإسرافيل عليه السلام موكل بالنفخ في الصور، **وميكائيل** موكل بالقطر والنبات ، وقد جمع الرسول ﷺ بين هؤلاء الملائكة في حديث استفتاح صلاة الليل « **اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل فاطر السماوات والأرض ...الحديث** »[1].

ومالك موكل بالنار لقول الله تعالى عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف:٧٧] .

أما ملك الموت عليه السلام فاشتهر عند العامة أن اسمه (**عزرائيل**) لكن ذلك لم يصح ، ولذا نكتفي بما جاء في القرآن من أنه ملك الموت ، كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة:١١].

ومنكر ونكير عليهما السلام وهما الملكان اللذان يسألان العبد في

---

[1] طرف من حديث أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ عند قيام الليل .

قبره عن ربه ودينه ونبيه .

ومنهم **حملة العرش** الذين يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، **ومنهم الكرام الكاتبين** ، **ومنهم الموكلون** بحفظ الإنسان ، **ومنهم الذين يقاتلون مع المؤمنين** ويثبتونهم بأمر الله تعالى ، **ومنهم خزنة جهنم** الغلاظ الشداد ، **ومنهم الموكل بالجبال** ، **ومنهم الموكل بالنطفة** في الأرحام ، **ومنهم زوار البيت** المعمور في السماء ، **ومنهم الملائكة السياحون** .

• الإيمان بأوصاف من علمنا وصفه من الملائكة وذلك بأن الله عز وجل وصفهم بأنهم : ﴿ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ [فاطر:١] ، وأن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ؛ كما ثبت ذلك في رؤية الرسول ﷺ له في صورته التي خلقه الله عليها قد سد الأفق ، وهذا يدل على عظمة الملائكة ، ومع ذلك فإن من الممكن أن يأتي على هيئة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب كما ورد ذلك في حديث جبريل المشهور ، وأن كل شخص معه ملكان يكتبان عمله عن يمينه وعن شماله؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨ ﴾ [ق:١٧-١٨].

نواقض الإيمان بالملائكة[١]:

إذا انتقض الإيمان بالملائكة لم ينفع الإيمان ببقية الأركان ، لأن الإيمان بالملائكة أحد الأركان الستة للإيمان وإذا زال منها ركن زال الإيمان كله ، ولأن الملائكة هم الواسطة في نزول الوحي وإنزال الكتب .

ومن نواقض الإيمان بالملائكة :

- إنكار وجودهم ؛ وفي هذا تكذيب للقرآن والسنة الصحيحة لورود ذكر الملائكة فيهما .
- سبهم أو الاستهزاء بهم أو بوظائفهم أو أسمائهم .
- إنكار ما ورد في القرآن من أوصافهم أو أعمالهم أو أسمائهم .
- بغضهم وعداوتهم؛ كما في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة:٩٨] .

آثار الإيمان بالملائكة ولوازمه :

١- محبتهم والأنس بهم؛ حيث إنهم عباد مكرمون يحبون المؤمنين

---

[١] لمعرفة التفاصيل في هذا النواقض يرجع إلى كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية د . عبد العزيز آل عبد اللطيف ص٢١١-٢١٨ .

ويستغفرون لهم ، فهذا كله مما يدفع المؤمن إلى إجلالهم ومحبتهم ، وأن لا يستوحش طريق الإيمان ولو كان وحده ، لأنه طريق أنبياء الله وملائكته الذين لا يحصيهم العد من كثرتهم ، وهم ما بين راكع وساجد لله تعالى ، فإذا تذكر المؤمن أنه ضمن هذه القافلة المباركة لم يستوحش طريقه مهما أجلب عليه الكافرون المفسدون ، ومهما كان فيه من ضيق وغربة .

٢- الخوف من الله عز وجل وتعظيمه ومحبته وإجلاله ؛ حيث إن هذا الخلق العظيم من الملائكة ـ على عظمة خلقهم ـ يخافون ربهم وهم من خشيته مشفقون ، فكيف بالإنسان الضعيف المسكين .

٣- محاسبة النفس واليقظة في كل قول وعمل ، حيث إن إيمان المؤمن بالملائكة ومنهم الكرام الكاتبين الذين يعلمون ما يفعل العباد ؛ إن ذلك لمن أقوى الأسباب في حفظ الجوارح من الوقوع في معصية الله تعالى وتوظيفها في طاعته سبحانه حتى لا يكتب عنه إلا خيراً .

٤- الطمأنينة والثبات في أوقات المحن والجهاد والشدائد ؛ حيث إن الله عز وجل يثبت المؤمنين بالملائكة الذين يقاتلون معهم ، وفي هذا ربط على القلوب وبشرى للمؤمنين .

الركن الثالث من أركان الإيمان

الإيمان بالكتب

« وهو الإيمان بكتب الله عز وجل التي أنزلها على الرسل وما من رسول إلا أنزل الله معه كتاباً ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:٢٥] وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣].

كيف نؤمن بالكتب ؟

الإيمان بالكتب أن نؤمن بما علمنا اسمه باسمه ، والذي علمنا اسمه من هذه الكتب : القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى إن قلنا إنها غير التوراة ، وما لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً ، لأن الله تعالى لا يضيع خلقه بل ينزل عليهم الكتب ليبين لهم الحق ، هذا من حيث الإيمان المجمل بالكتب .

أما من حيث قبول ما جاء فيها من خبر ، فيجب أن نقبل كل ما جاء في هذه الكتب من الخبر ، ولكن لا يعني أن نقبل كل خبر فيها الآن ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتغيير والتبديل ، لكن نقول إننا نؤمن بكل خبر جاء في التوراة أو الإنجيل أو في الزبور أو في صحف

إبراهيم بطريق صحيح .

مثال ذلك : في صحف إبراهيم : لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وعلمنا ذلك من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٦-٤١] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٦-١٩] .

فما صح من هذه الكتب فإنه يجب علينا أن نقبل خبره بدون تفصيل .

هذا بالنسبة للأخبار ، أما ما صح فيها من الأحكام ففيه تفصيل : فما كان في القرآن فإنه يلزمنا التعبد به ، وما كان في الكتب السابقة نظرنا إن كان مخالفاً لشريعتنا فإننا لا نعمل به ، لا لأنه باطل بل هو حق في زمنه ، ولكننا لا يلزمنا العمل به ؛ لأنه نسخ بشريعتنا ، وإن وافق شريعتنا فإننا نعمل به ؛ لأن شريعتنا أقرته وشرعته ، وما لم يكن في شرعنا خلافه ولا وفاقه فإن العلماء قد اختلفوا في ذلك ؛ فمنهم من

قال : هو شرع لنا ومنهم من قال: ليس بشرع لنا »[١] أهـ.

والصواب أنه شرع لنا إذا ثبت أنه لمن قبلنا وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رحمه الله ، واختاره ابن عبد البر رحمه الله[٢] .

والإيمان بكتب الله عز وجل يجب إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصل ، ومما يجب الإيمان به مفصلاً الإيمان بالقرآن الكريم ، وذلك بتصديقه وأنه كلام الله عز وجل الذي أنزله على قلب محمد ﷺ ليبلغه للناس ، ويتبعوه ويتعبدوا بتلاوته ، وأن ينصحوا لهذا القرآن العظيم كما قال الرسول ﷺ (الدين النصيحة) قلنا: لمن يارسول الله ؟ قال : (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٣] .

يقول النووي رحمه الله تعالى في بيان معنى النصيحة لكتابه: « وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، ولايشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين

---

[١] انظر فتاوى ودروس الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين حفظه الله ١/٣٦ .

[٢] انظر التمهيد (١٤/٣٧٨) .

[٣] مسلم ك . الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة ح (٩٥) من حديث تميم الداري .

والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه »[1] أهـ.

من نواقض الإيمان بالكتب :

١- إنكار الكتب والتكذيب بها ، ولو بواحد منها .

٢- نسبتها إلى كلام المخلوقين وأنها ليست من عند الله عز وجل .

٣- بغضها أو كره ما فيها .

٤- سبها والطعن فيها أو الاستهزاء بها والاستخفاف بها بالقول أو الفعل .

٥- رفض الحكم بالقرآن أو التحاكم إليه وتحكيم ما سواه .

٦- التكذيب ولو بخبر واحد أو آية أو حرف من القرآن الكريم .

٧- تحريف كلام الله عز وجل ونسبة ذلك إلى الله عز وجل .

٨- ادعاء تحريف القرآن أو أن هذا الذي بين أيدينا قد حرف أو نقص منه أو زيد فيه بعد موت الرسول ﷺ .

---

[1] التبيان في آداب حملة القرآن ص ٩٧، ٩٨، وانظر كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية ص ١٩٨ .

٩- القول بأن القرآن فيه تناقض أو أنه مقدور على مثله .

وإذا وجد ناقض أو أكثر من هذه النواقض انتقض الإيمان بالكتب وبالتالي انتقض الإيمان كله لذهاب ركن من أركانه ، وأصبح المتلبس بذلك من الكافرين الخاسرين .

من آثار الإيمان بالكتب ولوازمه :

١- محبة الله عز وجل حيث لم يترك عباده في ظلمات الشرك والفسوق والعصيان ، وإنما رحمهم وأنزل عليهم الكتب التي تنير لهم الطريق وتهديهم إلى الصراط المستقيم .

٢- محبة القرآن الكريم وتعظيمه ، والفرح به والمحافظة على تلاوته وتدبره وتعليمه ، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه والدعوة إليه .

٣- الحكم بما أنزل الله فيه والتحاكم إليه ، والرضى والتسليم بأحكامه المبرَّأة من النقص والمحققة لمصالح العباد في الدنيا والآخرة .

الركن الرابع من أركان الإيمان
الإيمان بالـــرسل

وهـو الإيمـان بكـل مـا قصـه الله عـز وجـل علينـا عـن أنبيائـه ورسـله عليهم الصلاة والسلام في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، وأن نؤمن بأسماء من علمنا اسمه منهم ، وأن نؤمن بكل خبر أخبروا به ، وأنهم صادقون في ما يبلغونه عن ربهم عز وجل ، وأما من لم نعرف اسمه فنؤمن به إجمالاً ، حيث هناك من الرسل من لم يقصه الله علينا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] **ومن الإيمان بالرسـل**: إيماننا بأنهم أفضل البشر، وأنهم يتفاضلون كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣] . **وأفضلهم**: أولو العزم من الرسل؛ وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] وأفضل أولي العزم نبينا محمد ﷺ ، وأول الرسل نوح ﷺ .

ومن الإيمان بالرسل: الإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين؛ فلا نبي بعده لقـــوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ

وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

ومن الإيمـــان بالرســـل: محبتهم وإجلالهم وتعظيمهم وتوقيرهم وتصديقهم في كل ما أخبروا به عن الله عز وجل ، وأن الله عز وجل اصطفاهم لرسالته لعلمه سبحانه بصلاحهم لها لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥] ولقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

ومع شرفهم هذا فهم عبيد لله تعالى مربوبون له بلغوا الكمال في العبودية له سبحانه ، ولذا فمن الإيمان بالرسل الإيمان بأن دعوتهم واحدة ، وأن كل رسول دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى .

ومن لوازم الإيمان برســولنا ﷺ إضافة إلى ما سبق في حق الرسل: طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ، وأن تحقق محبته اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وأن ننصح له باتباعه والذب عن سنته ، والبحث عن أخلاقه وهديه وسيرته والتحلي بها، وتعظيم أمره ، وشدة الغضب على من تدين بخلاف سنته ، وأن يحب من كان منه بصلة من قرابة أو صحبة ومات على الإيمان ، وأن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ، وأن لا يعارض قوله بقياس ولا عقل

وأن لا يغالى فيه ويرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها ؛ فلا يشرك مع الله تعالى في أي نوع من أنواع العبادة ، ولا يجعل قبره وثناً فهو ﷺ عبد الله ورسوله ، ورفعه عن هذه المنزلة فيه أذى له ﷺ ومخالفة لأمره ونهيه ، والحق بين الجافي والغالي .

من نواقض الإيمان بالرسل[1] :

١- التكذيب بهم وإنكارهم ، ولو واحد منهم ، لأن في ذلك تكذيب لخبر الله عز وجل في كتابه الكريم .

٢- سبهم أو الاستهزاء بهم ، أو الاستخفاف بأقوالهم وأحوالهم أو أشخاصهم أو أسمائهم ، أو ادعاء علو المنزلة فوقهم .

٣- اتهام أحد منهم بالكذب فيما يخبر عن ربه عز وجل أو تقويله من الباطل ما لم يقله .

٤- ادعاء النبوة بعد محمد ﷺ ، أو تصديق من ادعاها أو ادعى أنه يُوحى إليه ولو لم يدع النبوة .

٥- ادعاء أن الرسالة والنبوة طريقها الكسب والتأمل وترويض النفس ... إلخ ، وليس طريقها الوحي .

---

[1] انظر تفصيل أدلة بعض هذه النواقض في كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية ص١٥٧-١٩٨ .

٦ – معاداتهم وبغضهم ومحبة أعدائهم وتوليهم .

٧– رد شيء مما جاء به الرسول ﷺ وعدم قبوله والالتزام به ، وهذا خلاف مَنْ قَبِل ماجاء به الرسول ﷺ لكنه ضعف عن الامتثال في بعض الأحوال عن تقصير وشهوة مع إقراره بذنبه ؛ فهذا معصية وليس ناقضاً .

٨ – الطعن فيما يثبت من سنة الرسول ﷺ وسيرته الكريمة .

٩– من ادعى أن مع النبي ﷺ شريكاً في الرسالة ؛ كقول غلاة الرافضة .

١٠– من رفع الرسول إلى منزلة الألوهية وأشركه مع الله عز وجل .

١١– من آمن بنبوة الرسول ﷺ لكنه ادعى أنها في العرب خاصة وليست لجميع الثقلين .

الركن الخامس من أركان الإيمان

الإيـــمـــان باليـــوم الآخـــر[١]

وهو الإيمان بمجئ اليوم الآخر وهو يوم القيامة وسمي آخراً لأنه لا يوم بعده ، وهو آخر المحطات التي يتنقل فيها الإنسان من العدم إلى بطن أمه ثم إلى الدنيا ثم إلى البرزخ ، ثم إلى اليوم الآخر بعد بعث الناس من قبورهم ، ثم لا محطة بعدها وإنما هو استقرار في الجنة أو النار .

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة ، وبما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه والبعث بعد الموت ، وما يكون بعده من المجازاة على الأعمال ، وما يكون هنالك من الأهوال والمواقف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ومن المسائل التي تدخل في اليوم الآخر ويجب الإيمان بها ما يلي :

١- فتنة القبر : وهو أول شيء يكون بعد الموت حيث يختبر العبد في قبره عن ثلاثة أمور : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟

فأما المؤمن فيثبته الله عز وجل ويقول : ربي الله وديني الإسلام ونبي

---

[١] سيتم استعراض أحوال اليوم الآخر على وجه الاختصار ، ومن أراد التوسع في ذكر الأدلة فليرجع إلى العقيدة الطحاوية ومعارج القبول ، وغيرها من كتب العقيدة .

محمد ﷺ ، وأما الكافر والمنافق فيقول: هاه هاه لا أدري .

٢- عذاب القبر ونعيمه : وهذا ثابت بالكتاب والسنة وأن الميت إما أن ينعم في قبره وإما أن يعذب عياذاً بالله تعالى ، ودليل نعيم القبر قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل: ٣١-٣٢] .

ودليل عذابه قوله تعالى عن آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] وقد تواترت السنة في ذكر عذاب القبر ونعيمه ؛ كما في الدعاء الذي أرشدنا الرسول ﷺ أن نقوله بعد التشهد في آخر الصلاة: « **اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ...الحديث** »[1] ، وحديث « **إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير** »[2] .

---

[1] البخاري في الأذان (٨٣٢) ، ومسلم (٥٨٩) ك .المساجد من حديث عائشة رضي الله عنها .

[2] البخاري في الوضوء (٢١٨) (الفتح ١/٣٧٩) ومسلم ك. الإيمان (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٣- البعث بعد الموت : وهوالقيامة الكبرى ، وهو المقصود الأعظم من ألإيمان باليوم الآخر ؛ حيث تعاد الأرواح إلى أجسادها يوم ينفخ في الصور فيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً بعد أن كانوا رميماً ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس:٧٨-٧٩] . وقال عز وجل : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن:٧] وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر:٦٨]

٤- محاسبة الخلائق على أعمالهم : وهو الإيمان بأن الخلائق يحاسبون على أعمالهم؛ فالمؤمن يكون حسابه حساب فضل وإحسان وكرم وهذا هو الحساب اليسير ، ومن نوقش الحساب عذب ، وأما الكفار فإنهم لا يحاسبون هذا الحساب بل يُقرَّرون بأعمالهم ، فإن أنكروا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، فيجزون بها ، وينادى على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود:١٨] ، وهناك من عباد الله من ينجون من الحساب بالكلية وهم الذين أخبر عنهم

النبيﷺ أن من أمته سبعين ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[1].

٥- الوزن ونصب الموازين : وهو الإيمان بوضع الموازين القسط ليوم القيامة فيوزن فيها العباد وأعمالهم ، وله كفتان توضع في إحدى الكفتين الحسنات وفي الأخرى السيئات ؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]

٦- نشر الكتب والصحف : وهو الإيمان بتطاير الصحف يوم القيامة قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٩] وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧] ، وهذه الكتب قد كتب فيها ما عمله العبد في الدنيا .

---

[1] انظر البخاري ك. الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم ك. الإيمان (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٧ – **الحوض** : وهو الإيمان بحوض النبي ﷺ والذي تواترت الأحاديث بذكره ؛ وهو حوض واسع طوله شهر وعرضه شهر ، وآنيته كنجوم السماء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، يرده المؤمنون من أمة محمد ﷺ ويذاد عنه من بدل وأحدث بعده ﷺ .

٨– **الصراط** : وهو الجسر الممدود على متن جهنم ، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم في الدنيا ؛ فمن كان أسرع في الدنيا لصراط الله المستقيم وقبول الحق والعمل به كان على الصراط أسرع مروراً ، ويعبر عليه المؤمنون إلى الجنة ، أما الكافرون فلا يمرون عليه لأنه يصار بهم إلى النار ورداً عطاشاً ، وكل هذا قد وردت به الأحاديث الصحيحة فيؤمن بها ويُسلم لها ، دون " **كيف** "؟ ، ولا " **لِمَ** "؟، وهذا هو موقف العبد المؤمن من الغيبيات التي ثبتت في القرآن أو السنة .

٩– **الشفاعة** : وهي نوعان :

- خاصة بالنبي ﷺ .
- عامة له ولسائر النبيين والصديقين والصالحين والشهداء .

أما الشفاعة الخاصة: فهي الشفاعة العظمى التي يعتذر منها آدم وأولو

العزم من الرسل عليهم السلام ، ويتفضل بها الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ ، ويأذن له بالشفاعة عنده عز وجل لينزل للفصل بين الخلائق ، وهذا هو المقام المحمود الذي وعد الله به رسوله ﷺ .

ومن الشفاعة الخاصة : كذلك شفاعته ﷺ لأهل الجنة بدخولها ، وشفاعته لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه .

أما الشفاعة العامة : فهي الإيمان بشفاعته ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين والشهداء لمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها ، ولمن استحق النار من المؤمنين أن لا يدخلها .

وهذه الشفاعة لا يؤمن بها المعتزلة ولا الخوارج ؛ لأنهم يعتقدون خلود مرتكب الكبيرة في النار ، وأن من دخل النار منهم لا يخرج منها ، ومن مات مصراً على كبيرة فهو مخلد في النار ، لا تنفع فيه شفاعة الشافعين ، ومعلوم انحراف هذا القول ، وليس المقام مقام مناقشة بطلانه فمحل ذلك أبواب الإيمان ، وقد مر بنا في أول الحديث عن الإيمان معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان ، ومعتقد من خالفهم من الخوارج والمرجئة حيث هما طرفان ، وأهل السنة وسط بينهما حيث ينفون الشفاعة الشركية ، ويثبتون الشفاعة الشرعية ولكن بشرطيها وهما :

١- إذنه سبحانه وتعالى للشافع .

٢- رضاه عن المشفوع له ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم:٢٦] وهذه هي الشفاعة المثبتة ، أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعة الشركية التي يطلبها المشركون والقبوريون ممن يعتقدون فيهم الولاية ، ويدعونهم من دون الله ويذبحون لهم وينذرون.

والله عز وجل لا يأذن لأحد أن يشفع في مشرك ؛ فهم أبعد ما يكون عن شفاعة الشافعين ، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر:٤٨] أما من مات لا يشرك بالله شيئاً فهو الحري بالشفاعة ، جعلنا الله بفضله وكرمه منهم .

١٠- **الجنة والنار** : وهما دار الجزاء ؛ وهما موجودتان الآن دائمتان لا تفنيان ، والجنة دار المتقين ولا يدخلها إلا نفس مسلمة ، والنار دار الكافرين ولا يخلد فيها موحد ، وهذا ثابت في الكتاب والسنة والإجماع ، وقد رآهما الرسول ﷺ في صلاة الكسوف حيث عرضت عليه الجنة والنار ، وذلك في حديث صحيح ثابت[1].

---

[1] صحيح مسلم ك . الكسوف باب ذكر عذاب القبر (٩٠٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ومن الإيمان بهما الإيمان بدخول المؤمنين للجنة يتنعمون فيها أبد الآباد ، ودخول الكافرين النار يعذبون فيها أبد الآباد ، لأن الجنة والنار لا تفنيان .

من آثار الإيمان باليوم الآخر وثمراته :

١- « إن إيمان العبد باليوم الآخر حق الإيمان يفتح باب الخوف والرجاء ؛ اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب ، وإن عُمِّرَ بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي والمظالم ، وأوجب له الرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها ، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها كأهوال القبر وشدته ، وأحوال الموقف الهائلة وصفات النار المفظعة ، وصفات الجنة ، وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور ؛ فيحدث بذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب قدر الاستطاعة .

٢- **معرفة فضل الله وعدله** في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده ، والثناء عليه بما هو أهله .

٣- **الإيمان بالبعث** والجزاء أصل صلاح القلب ، وأصل الرغبة في الخير ، والرهبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات »[1].

---

[1] انظر تفسير السعدي

٤- **طمأنينة القلب وثباته** أمام فتن السراء والضراء في الدنيا والآخرة ؛ لأن العبد إذا سيطر عليه هم الآخرة وأيقن بها وبزوال الدنيا لم يجزع عند حلول المصائب ، ولم يبطر عند حلول النعم ، وإنما تراه صابراً شاكراً يرجو ثواب ذلك عند الله عز وجل في الدار الآخرة .

٥- **الاندفاع الشديد للدعوة إلى الله** عز وجل والجهاد في سبيله لأن ذلك من أحب الأعمال إلى الله عز وجل ، والذي يتعبد بها يرجو رضاه وجنته ، كما أن الإيمان باليوم الآخر يجعل العبد يسعى حثيثاً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى حتى لا يشقوا في الآخرة ويكونوا من وقود النار .

٦- **سلامة القلب من الغل والحسد** ؛ لأن الرغبة في الآخرة تجعل العبد يزهد في الدنيا الفانية والتي هي سبب التحاسد والتباغض بين الناس .

من نواقض الإيمان باليوم الآخر :

١- إنكار البعث وقيام الناس لرب العالمين يوم القيامة لقوله تعالى ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ ﴾ [التغابن:٧] ، ولقوله تعالى : ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم

بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧-٩٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ:٣-٤] ، كما أن في إنكار البعث تعطيل لأسماء الله عز وجل وصفاته ومقتضاها ؛ إذ في ذلك إنكار لعلم الله سبحانه وعدله وحكمته ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] ولذلك يكفر من قال بعقيدة التناسخ التي مفادها أن من يموت تنتقل روحه إلى أعلى منه إن كانت في مطيع ، وإلى أدنى منه أو مثله إن كانت في عاصٍ ، وهكذا أبد الآباد ، بدون بعث ولا حساب ، كما يقوله زنادقة الباطنية ، ويكفر أيضاً من قال بقول زنادقة الفلاسفة بأن البعث للأرواح لا للأجساد ، وممن قلدهم في ذلك ابن سينا الطبيب المشهور .

٢- إنكار الجنة والنار أو الشك فيهما ، ويدخل في ذلك إنكار ما أعد الله للمؤمنين من صنوف النعيم من المآكل والمشارب والحور العين في الجنة ، أو ما توعد الله عز وجل أهل الكفر والفسوق من صنوف

العذاب من السلاسل والزقوم والغسلين والحميم في النار ، والقول بأن الوعد والوعيد تخييل للحقائق لكي ينتفع به الجمهور ؛ كما يقول به ملاحدة الفلاسفة ، ويدخل في هذا الكفر من باب أولى من أنكر الجنة أوالنار ، أو قال بأنهما معانٍ باطنة يقصد بها نعيم الأرواح أو تألمها فقط ، أو أن أهل النار يتنعمون في النار . ومن صور هذا الكفر السخرية بالوعد والوعيد والاستهزاء بهما .

٣- إنكار ما أخبر الله عز وجل به عن يوم القيامة من الحساب ووضع الموازين القسط ليوم القيامة ، ونشر الصحف واستلام الكتب باليمين أو الشمال ؛ لأن في ذلك تكذيباً لخبر القرآن الكريم ، ويدخل في ذلك من شك أو سخر بشيء من ذلك .

الركن السادس من أركان الإيمان

الإيـــمـــان بالقـــدر خيـــره وشـــره

« **الإيمان بالقدر** معناه أن تؤمن بأن الله عز وجل قد قدر كل شيء بل أن يكون وأنه قدره عن علم ؛ ولهذا قال العلماء إن مراتب الإيمان بالقدر **أربع مراتب** :

المرتبة الأولى : العلم ومعناهـــا : أن تؤمن بأن الله تعالى عالم كل شيء جملة وتفصيلاً سواءً فيما يتعلق بفعله عز وجل كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وإنزال المطر وغير ذلك ، أو ما يتعلق بفعل المخلوقين كأقوال الإنسان وأفعاله ، بل حتى أفعال الحيوان كلها معلومة لله عز وجل قبل وقوعها ؛ وأدلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] ومنها قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩] وهذا العلم من الله عز وجل لم يسبقه جهل ولا

يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥١-٥٢] ، وقوله ﴿ لَّا يَضِلُّ ﴾ أي لا يجهل ، ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ ما كان معلوماً ، بينما علم البشر محفوف بهاتين الآفتين :جهل مسبق ونسيان لاحق ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾ [النحل –٧٨] .

المرتبة الثانية : الكتابة ومعناها : أن تؤمن بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة ، كل شيء يكون في الوجود أو يصير إلى العدم ، فإنه مكتوب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ودليل هذه المرتبة من الكتاب قول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠ ﴾ [الحج :٧٠]، وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد :٢٢] .

ومن السنة حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما ((**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**))[1].

المرتبة الثالثة : المشيئة ومعناها : أن تؤمن بأن كل ما كان ويكون فهو بمشيئة الله عز وجل ، وما لم يشأه سبحانه لم يكن ، وقد أجمع المسلمون على هذا في الجملة ؛ فكل المسلمين يقولون : ((ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)) ، فكل شيء واقع بمشيئة الله تعالى ، فما كان بفعل الله عز وجل فهو بمشيئته ولا إشكال فيه ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وكذلك ما كان من فعل المخلوق فهو أيضاً بمشيئة الله ، ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة :٢٥٣] ، والاقتتال فعل العبد فجعله الله عز وجل بمشيئته وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ

---

(١) أخرجه البخاري ك . التوحيد باب وكان عرشه على الماء ، (٧٤١٨) .

ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، وقال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] .

إذاً فأفعالنا واقعة بمشيئة الله تعالى .

أما الدليل العقلي : فأن يقال : هل الخلق ملك لله ؟ فالجواب : نعم ، وهل يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يريد ؟ الجواب : لا يمكن ؛ فمادام الشيء ملكه فلن يكون في ملكه ما لا يريد ، إذاً فكل ما كان في ملكه فهو بإرادته ، وبمشيئته ولا يكون في ملكه ما لا يشاء أبداً . إذ لو كان في ملكه ما لا يشاء لكان ملكه ناقصاً ، وكان في ملكه ما يقع بدون مشيئته وعلمه ، وهذا يستلزم عجزه سبحانه وأنه ليس على كل شيء قدير تعالى الله علواً كبيراً .

المرتبة الرابعة : الخلق ومعناها : الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء ، فنؤمن بعموم خلق الله تعالى لكل شيء ، ودليل ذلك : قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان:١-٢]وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] ، وقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩] .

والآيات في ذلك واضحة كثيرة تبين أن كل شيء مخلوق لله عز وجل ، ومنه فعل الإنسان فهو مخلوق لله تعالى ، وإن كان هو الفاعل حقيقة ، باختياره وإرادته لكنه مخلوق لله تعالى ؛ وذلك أن فعل الإنسان ناشيء من أمرين هما الإرادة الجازمة والقدرة التامة .. فأفعالنا كلها التي نفعلها ناشئة عن إرادة جازمة وقدرة تامة ، والذي خلق هذه القدرة والإرادة هو الله عز وجل ...

ووجه كون الله هو الخالق لهذه الإرادة والقدرة أن الإرادة والقدرة وصفان للمريد والقادر ، وخالقه هو الله عز وجل وخالق الموصوف خالق للوصف ، ومع هذا فهي أفعالنا لا أفعاله تعالى بل مفعولاته أي مخلوقاته ، والصواب هو الفرق بين الفعل والمفعول فالمخلوقات كلها

مفعولة له ، وأفعاله تعالى ما قام به من الخلق والتدبير والقول ونحو ذلك .

وبهذا اتضح الأمر وانجلى بأن أفعال الإنسان مخلوقة لله عز وجل)[١]

وبعد فهذه مراتب القدر التي لا يصح إيمان عبد بالقدر إلا بها ، وبقي أن يقال إن القضاء والقدر هو سر الله عز وجل في خلقه ، ولا تقوم شجرته في قلب المؤمن إلا على ساق التسليم ، والإيمان بأن الله عز وجل حكم عدل لا يظلم أحداً لأنه حرَّم الظلم على نفسه ، وجعله بين عباده محرماً، وله الحكمة البالغة فيما يقدره في خلقه ، وما لم يظهر لنا حكمته فيما يقضيه سبحانه ويقدره فلقصور عقولنا عن إدراك أسرار قدره سبحانه ولقصورها عن إدراك الحكمة العظيمة التي يريدها الله عز وجل من وراء أقضيته وأقداره ، ويكفي ما علمناه من الحكم العظيمة في بعض خلقه لنسلم بحكمته سبحانه فيما لم ندركه ونعقله من الحكم فيما غاب عنا ، ويقول الإمام الطحاوي : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم

---

[١] انظر فتاوى ودروس الحرم المكي للشيخ ابن عثيمين حفظه الله ١/٣٥-٦٠ باختصار وتصرف يسيرين .

عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فمن سأل : لِمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين »[1] أهـ.

من ثمرات الإيمان بالقدر خيره وشره :

١- تعظيم الله عز وجل وإجلاله : لما في الإيمان بالقدر من ظهور آثار أسمائه سبحانه وصفاته ، وذلك من علمه المحيط بكل شيء وحكمته البالغة ، وخلقه لكل شيء وقهره لكل شيء ، كل ذلك من شأنه أن يملأ القلب إجلالاً وتعظيماً ومحبة لله عز وجل .

٢- التسلية عند حلول المصائب : لأن العبد إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رضي وسلم ، ونزلت على قلبه الطمأنينة ، ولم يجزع كما في قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣] .

٣- سلامة القلب من الحسد والحقد اللذان هما في الحقيقة معارضة لقدر الله عز وجل فيما يقدره من النعم على عباده ويصرفه عنهم من

---

[1] العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ .

النقم .

٤- السلامة من الضلالات التي أصابت بعض الطوائف الضالة في باب القدر كالقدرية والجبرية ، والتي لها الآثار في أعمالهم وتصرفاتهم المشينة .

٥- بذل الجهد في الأعمال الصالحة والفرار من أقدار الله تعالى التي لا يرضاها إلى أقداره التي يرضاها .

٦- سؤال الله عز وجل الهداية والثبات ، والخوف من زيغ القلب وزلة القدم ، ولا عاصم من ذلك إلا من رحم الله عز وجل فهداه وثبته ، وهذا يثمر صدق التوكل على الله عز وجل واللجوء إليه وحده

من نواقض الإيمان بالقدر :

١- إنكار القدر والتكذيب به؛ بأن ينكر أو يكذب أن الله عز وجل علم الأشياء قبل وقوعها ، أو كتبها في كتاب مبين ، أو ينكر أو يكذب بمشيئة الله عز وجل لها ، أو ينكر خلق الله تعالى للأشياء .

٢- من لم يكذب به ولكنه استخف به أو استهزأ به وسخر منه .

٣- معارضة الله عز وجل في أقداره ، أو الاعتقاد بأنها عبث وسدى .

٤- اعتقاد أن تقدير الله عز وجل للمصائب على عباده ظلم من الله تعالى الله عن ذلك .

٥- الاعتقاد بأن المعاصي وأكبرها الشرك يرضاها الله عز وجل عندما تقع من العبد ، لأن الله عز وجل قدرها عليه ، وهذا قول المشركين الأولين ومن تابعهم من غلاة الصوفية الجبرية ؛ فقد قال الله عز وجل عن المشركين : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:٢٨].

ولو تأملنا هذه النواقض لرأيناها في حقيقتها تنقصاً وتكذيباً لله عز وجل ، وتعطيلاً لأسمائه وصفاته واستخفافاً بها ، ولهذا يكفر من تلبس بها وينتقض إيمانه .

وبذلك ننتهي من الحديث عن الأصل الأول من أصول النجاة في هذه السورة العظيمة سورة العصر ، ألا وهو (**الإيمان**) وذلك من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر:١-٣] وننتقل الآن إلى الكلام عن الأصل الثاني من أصول النجاة كما حددته السورة الكريمة ألا وهو (**العمل الصالح**) وذلك من قوله تعالى ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾

** ** **

الأصل الثاني : العمـــل الصالـــح

إن ما أجمع عليه السلف في أبواب الإيمان أن الإيمان قول وعمل ، وأنه قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

إذاً فالعمل الصالح جزء لا يتجزء من الإيمان ؛ فإذا انتفى جنسه انتفى أصل الإيمان ، وإن انتفى بعضه فإن كان من الواجبات انتفى كمال الإيمان الواجب ، وإن كان من المستحبات انتفى كمال الإيمان المستحب ، وإن كان العمل المتروك قد نص الشارع على كفر تاركه انتفى أصل الإيمان .

ومن شبهات المرجئة في فصلهم العمل عن الإيمان قولهم بأن الله عز وجل قد عطف العمل الصالح على الإيمان في أكثر من آية في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين:٦] والعطف يفيد المغايرة فدل ذلك على أن العمل الصالح غير داخل في مسمى الإيمان ، وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: تعالى الرد على هذه الشبهة بكلامٍ شافٍ كافٍ ، فقال رحمه الله تعالى « وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيداً كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [فصلت:٨] وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٣] وقول النبي ﷺ « **الإيمان أن تؤمن بالله**

وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد المـــوت » ونحو ذلك فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك ، وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨] وقولـــه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ ﴾ [الأحزاب:٧] ، وقد يقال : إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران ، كلفظ الفقير والمسكين ، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر ، وإذا جمع بينهما كانا صنفين كما في آية الصدقة ، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين ؛ وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ، ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه: هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا ؟ لكونها عُطفت عليه .

ومن هذا الباب قد يعطف على الإيمان بعض شعبه العالية ، أو بعض أنواعه الرفيعة : كاليقين والعلم ونحو ذلك ، فيشعر العطف بالمغايرة ؛ فيقال : المؤمن الذي معه هذا الإيمان ـ أي اليقين ـ أرفع من المؤمن الذي ليس معه هذا اليقين والعلم كما قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة:١١] ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الإيمان والتصديق في قوته وضعفه ، وفي عمومه وخصوصه ، وفي بقائه ودوامه ، وفي موجبه ونقيضه ، وغير

ذلك من أموره ، فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النوع الآخر، ويبقى اسم الإيمان في مثل ذلك متناولاً للقسم الآخر ، وكذلك يفعل في نظائر ذلك ؛ كما يقال : الإنسان خير من الحيوان ، والإنسان خير من الدواب ، وإن كان الإنسان يدخل في الدواب ، في قوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢٢] فإذا عرف هذا ؛ فحيث وجد في كلام مقبول تفضيل شيء على الإيمان فإنما هو تفضيل نوع خاص على عمومه ، أو تفضيل بعض شعبه العالية على غيره ، واسم الإيمان قد يتناول النوعين جميعاً ، وقد يخص أحدهما كما تقدم ، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة أسمائه »[1] أهـ.

وهنا بعض المسائل المتعلقة بالعمل الصالح :

المسألة الأولى : ما المراد بالعمل الصالح ؟

ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ : « أي أدوا ما لزمهم من فرائضه واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه »[2].

---

[1] مجموع الفتاوى ٧/٦٤٧-٦٤٨ .

[2] تفسير الطبري ٣٠/٢٩٠ .

وقد جاء ذكر العمل الصالح في القرآن الكريم في مواطن كثيرة وعلى **عدة وجوه** :

• فمرة يذكر معه الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧]، وقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] .

• ومرة مقروناً بالصبر كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود:١١].

• ومرة يقرن بالنهي عن الشرك كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

• وفي مواطن أخرى يقرن مع الإيمان بعض الأعمال الصالحة لخصوصيتها والتنويه على علو شأنها ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٧]

وكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود:٢٣] وفي ضوء الآيات السابقة وما ماثلها يمكن تفصيل القول في العمل الصالح حسب الوجوه التالية :

١- إذا جاء ذكر العمل الصالح مقروناً بالإيمان فإن المراد منه كل عمل أو قول يقوم على إخلاص العمل لله عز وجل ، والمتابعة فيه للرسول ﷺ ، وبدون هذين الشرطين لا يعد العمل صالحاً ، ولم نذكر شرط الإيمان هنا لوجوده في نفس الآية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

٢- وإذا ورد ذكر العمل الصالح مفرداً كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود:١١] فإن المراد بالعمل الصالح هنا ؛ ما توفر فيه شرطا الإخلاص والمتابعة مضافاً إليهما شرط الإيمان والتوحيد إذ لا قيمة لعمل بدون إيمان إذ هو الأصل في جميع الأعمال والشرك يحبط جيمع الأعمال ، أي أنه إذا ذكر العمل الصالح غير مقترن بذكر الإيمان في آية واحدة فإن العمل الصالح متضمن لذكر الإيمان .

٣- وإذا ذكر العمل الصالح مع الإخلاص لله تعالى ، فإن المراد بالعمل

الصالح هنا ما كان عن إيمان بالله تعالى ، وموافقاً لما جاء به الرسول ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : (﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أي ما كان موافقاً لشرع الله))[1].

٤- إذا عطف على الإيمان والعمل الصالح بعض الأعمال الصالحة كالإخبات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ فإن ذلك من عطف الخاص على العام ، ولكونها ثمرة من ثمار الإيمان ، كما يراد بها التنويه بمنزلة هذه الأعمال عند الله عز وجل .

وعن هذه الأصول الثلاثة التي هي شروط العمل الصالح والتي لا يوصف العمل بأنه صالح إلا بها ، يقول الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى ((وقوله في هذه الآية الكريمة[2] : ﴿ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بينت المراد به آيات أخر ؛ فدلت على أن العمل لا يكون صالحاً إلا

---

[1] تفسير ابن كثير عند الآية رقم ١١٠ من سورة الكهف .

[2] يعني قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف:٢] .

بثلاثة أمور :

الأول : أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ ، فكل عمل مخالف لما جاء به صلوات الله وسلامه عليه فليس بصالح ؛ بل هو باطل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى:٢١] إلى غير ذلك من الآيات .

الثاني : أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ ﴾ [الزمر:١١-١٥] إلى غير ذلك من الآيات .

الثالث : أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة ؛ لأن العمل كالسقف ، والعقيدة كالأساس؛ قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل:٩٧] فجعل الإيمان قيداً في ذلك))[1].أهـ

وقد ذكرت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] .

المسألة الثانية : الوظائف التي على القلب واللسان والجوارح من العبوديات والأعمال الصالحة :

لما كان العمل من الإيمان ، والإيمان قول وعمل ، وهو موزع على القلب واللسان والجوارح ؛ فلا جرم كان على هذه المواطن من العبوديات والعمل الصالح كل بحسبها ، فعلى القلب جزء من الأعمال الصالحة تخصه ، وعلى اللسان نصيبٌ يخصه ، وعلى الجوارح ما يخصها .

وعلى هذا فإن الأعمال الصالحة تشمل جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المرضية عند الله عز وجل .

ويفصل القول في هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول:

---

[1] أضواء البيان ٤/٩ .

« رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية ، وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

فواجب القلب منه متفق على وجوبه ومختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة ، وهذه قدر زائد على الإخلاص ؛ فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره ، ونية العبادة لها مرتبتان :

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادة بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصدق والفرق بينه وبين الإخلاص : أن للعبد مطلوباً وطلباً ، فالإخلاص : توحيد مطلوبه ، والصدق توحيد طلبه .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسماً ، والصدق أن لا يكون الطلب منقسماً ، فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .

وكذلك النصح في العبودية ـ ومدار الدين عليه ـ وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له ، وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان : واجب مستحق ، وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ؛ قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن ، أو بضعاً وتسعين ، وله طرفان أيضاً : واجب مستحق ، وكمال مستحب ..

والقصد : أن هذه الأعمال ـ واجبها ومستحبها ـ هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح .

والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء ـ وهو القلب ـ قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته .

وأما المحرمات التي عليه : فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة

والنفاق ، وهي نوعان : كفر ومعصية .

فالكفر : كالشك ، والنفاق ، والشرك وتوابعها .

والمعصية نوعان : كبائر وصغائر .

فالكبائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشماتة بمصيبتهم ، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمني زوال ذلك عنهم وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر ، وغيرهما من الكبائر الظاهرة ، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها ؛ وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها .

فوظيفة « إياك نعبد » على القلب قبل الجوارح ، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه ، وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها ، وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضاً شهوة المحرمات وتمنيها ، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتهى ... وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

وأما عبوديات اللسان الخمس : فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن ـ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه ـ وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود ، وأمر بقول « ربنا ولك الحمد » ، بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير .

ومن واجبه رد السلام وفي ابتدائه قولان .

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة في العلم النافع ، وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ﷺ كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ﷺ ، والدعاء إليها ، وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول ، والكذب ، وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم وهو أشدها تحريماً .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به ؛ مع عدم العقوبة عليه .

وقد اختلف السلف : هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين ، ذكرهما ابن المنذر وغيره : أحدهما : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به إما أن يكون له أو عليه ، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور وهو « **كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه** »[1].

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٤١٢) وابن ماجة (٣٩٧٤) وابن السني (عمل اليوم والليلة /٥) والحاكم (٥١٣/٢) من حديث أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة عن النبي ﷺ قال : « **كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله** » وهذا حديث ضعيف ، أم صالح قال الذهبي وابن حجر : مجهولة ، قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن خنيس ، وفي بعض النسخ حسن غريب ، والأول هو الصواب الذي أثبته المزي في ترجمة أم صالح (تهذيب الكمال/ ٣٦٩/٣٥) ، وقد اعتبر بعض السلف المعنى الذي دل عليه هذا الحديث ، فقد قرئ الحديث على سفيان الثوري فقال رجل عنده ما أشد هذا ، فقال سفيان الثوري رحمه الله : وما شدة هذا الحديث إنما جاءت به امرأة عن امرأة هذا في كتاب الله عز وجل الذي أرسل به نبيكم ﷺ فقرأ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ:٣٨] وقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ =

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه ولا يكتب إلا الخير والشر .

وقالت طائفة : بل هذا الكلام مباح لا عليه ولا له ، كما في حركات الجوارح .

قالوا : لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي ، وهذا شأن المباح .

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ؛ بل إما راجحة وإما مرجوحة ، لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح ، وإذا أصبح ابن آدم فإن أعضاء ابن آدم كلها تذكر اللسان تقول ((**اتق الله ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا**))[1]

= وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣] وقال ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء:١١٤] .

[1] أخرجه أحمد (٣/٩٥-٩٦) الترمذي (٢٤٠٧) وابن السني (عمل اليوم والليلة/١) وأبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٩) من حديث حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، وقد اختلف في رفعه ووقفه ، وأشار الترمذي إلى هذا الخلاف فقال :" وهذا الحديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد ، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه " وقال الترمذي عن الموقوف :" هذا أصح " ، وأبو الصهباء قال الحافظ مقبول ، وقد حسن الحديث الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٤٨) .

وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم ، وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا .

فإن كان كذلك فهو الراجح ، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح ، وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح ، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين ، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة ، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له ، ولا مضرة عليه في الآخرة ، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة فتأمله .

فإن قيل : فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين ، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل .

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة ، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده ، فتكون عليه لا له .

فإن قيل : فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك ؛ إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم .

قيل : لا يلزم ذلك ، فقد يكون الشيء مباحاً ، بل واجباً ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة ـ هو واجب ـ مع أن وسيلته ـ وهو النذر ـ مكروه منهي عنه ، وكذلك الحلف المكروه مرجوح مع وجوب الوفاء به أو الكفارة .

وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة ، وهذا كثير جداً ؛ فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها ، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه .

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً ، إذ الحواس خمس ، وعلى كل حاسة خمس عبوديات .

فعلى السمع : وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ؛ إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة : من رده أو الشهادة على قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولا يحب أن يطلعك عليه ، مالم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن

إذا لم تدع إليه حاجة : من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء أو محاكمة أو مداواة ونحوها .

وكذلك استماع المعازف ، وآلات الطرب واللهو ، كالعود والطنبور واليراع ونحوها ، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت ، وهوا لا يريد استماعه ، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع .

ونظير هذا الْمُحْرِمُ : لا يجوز له تعمد شم الطيب ، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه .

ونظير هذا : نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر ، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها .

وأما السمع المستحب : فكاستماع المستحب من العلم ، وقراءة القرآن وذكر الله ، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض .

والمكروه : عكسه . وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه .

والمباح ظاهر .

وأما النظر الواجب : فالنظر في المصحف ، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها

إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك .

والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً ، وبغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب ، والمستام والمعامل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذي المحرم .

والمستحب : النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً ، والنظر في المصحف ، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين[1]، والنظر في آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

والمكروه : فضول النظر الذي لا مصلحة فيه ؛ فإن له فضولاً كما للسان فضولاً ، وكم قاد فضولها إلى فضولٍ عَزَّ التخلص منها ، وأعيَى دواؤها وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة .

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات . وهي قسمان : عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب .

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ

---

[1] المقصود نظر المحبة والبر لهما وطلب القدوة وحسن التأسي .

عينه ، لم يكن عليه شيء وذهبت هدراً بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته[١] ، وإن ضعفه بعض الفقهاء ، لكونه لم يبلغه النص أو تأوله .

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أو ريبة هو مأمور ـ أو مأذون له ـ في الاطلاع عليها .

وأما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت ، فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه .

قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك ، على أصح القولين ، وإن ظن الشفاء به ؛ فهل هو مستحب أو مباح أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة ، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب .

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق

---

[١] أخرجه البخاري ك. الديات (٦٨٨٨) ، ومسلم ك. الأدب (٢١٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

طعام الفجاءة ، وهو الطعام الذي تفجأ آكله ، ولم يُرِد أن يدعوك إليه وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها ، وفي السنن أن رسول الله ﷺ : « **نهى عن طعام المتبارين** »[1]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه . والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه ، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب .

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها ، للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم :

فالشم الواجب : كل شم تعين طريقاً للتميز بين الحلال والحرام كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة ؟ وهل هي سم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٥٤) ، والحاكم (١٢٩/٤) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار أبو داود إلى الخلاف في وصله وإرساله ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وذكر له العلامة الألباني رحمه الله شاهداً وصححه من حديث أبي هريرة ﷺ انظر الصحيحة (ح ٦٢٦) .

قاتل أو لا مضرة فيه ؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به ، وما لا يملك ؟ ومن هذا شم المقوِّم وربِّ الخِبْرة ، عند الحكم بالتقويم و [شم] العبيد ونحو ذلك .

وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب في الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق ، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ، ويقوي الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل ، ومن هذا : هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك ، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « **من عُرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنه طيب الريح خفيف المحمل** »[1] .

والمكروه : كشم طيب الظَّلَمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

والمباح : ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة ، ولا فيه مصلحة دينية ، ولا تعلق له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس :

فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجب جماعها ، والأمة الواجب إعفافها .

---

[1] أخرجه مسلم (٢٢٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ .

والحرام : لمس ما لا يحل من الأجنبيات .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله .

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة ، وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون ، وتغسيله في قميصه في أحد القولين ، ولمس فخذ الرجل إذا قلنا : هي عورة .

والمباح : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

وهذه المراتب أيضاً مُرَتّبة على البطش باليد ، والمشي بالرجل ، وأمثلتها لا تخفى .

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف ، والصحيح وجوبه ليمكنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة ، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر ، والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة ، وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب : إعانة المضطر ، ورمي الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم .

والحرام : كقتل النفس التي حرم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد ، أو ما هو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم ، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً ، إلا مقروناً بردها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم ، ولا سيما إن كسبت عليه مالاً : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:٧٩] وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً ، فالإثم موضوع عنه .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة ما لا فائدة في كتابته ، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين ، أو مصلحة لمسلم والإحسان بيده بأن يعين صانعاً ، أو يصنع لأخْرق ، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي ، أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ، ومنه : لمس

الركن بيده في الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان :

والمباح : ما لا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما المشي الواجب : فالمشي إلى الجمعات والجماعات ، في أصح القولين ، لبضعة وعشرين دليلاً ، مذكورة في غير هذا الموضع ، والمشي حول البيت للطواف الواجب ، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه ، والمشي إلى صلة رحمه ، وبر والديه ، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه ، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر .

والحرام : المشي إلى معصية الله ، وهو من رجل الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤] قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم . فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس .

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً :

فواجبه : في الركوب في الغزو ، والجهاد ، والحج الواجب .

ومستحبه : في الركوب المستحب من ذلك ولطلب العلم وصلة الرحم وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع، هل الركوب فيه أفضل

أم على الأرض ؟ والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم المناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركُه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء : القلب ، واللسان ، والسمع والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدابة »[1] .أ.هـ.

وبتأمل هذه العبوديات التي ذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى موزعة على القلب واللسان والجوارح ؛ نجد أنها تتضمن أفعالاً وتروكاً ، والفعل والترك إذا كان مما يحبه الله ويرضاه فإن الفاعل للمأمور به والتارك للمنهي عنه ابتغاء وجه الله عز وجل يصدق عليه أنه عمل صالحاً ، أي أن فعل المأمور وترك المنهي يعد عملاً صالحاً يتقرب به إلى الله عز وجل كما سبق تفصيله في النقل السابق .

---

[1] مدارج السالكين ١/١١٠-١٢٢ باختصار يسير .

المسألة الثالثة : أساس التفاضل بين الأعمال الصالحة :

إن وجوه البر والطاعات كثيرة ، والأعمال الصالحة متنوعة ، ولكن بعضها أحب إلى الله عز وجل من بعض ، وبالتالي فإن بعض الأعمال أفضل من بعض وإن كانت كلها فاضلة ، والأساس في التفاضل بين الأعمال عند الله تعالى هو ما يقوم في القلوب من الإيمان والإخلاص وتوابعهما [١]؛ فإذا تساوت في ذلك فإن التفاضل يكون حسب التفصيلات التالية :

١- الأعمال الصالحة التي افترضها الله عز وجل على عباده أحب إليه سبحانه وأفضل من الأعمال المستحبة ؛ والتي هي من جنس النوافل ، وإن كانت هي الأخرى محبوبة إليه عز وجل ، فإذا قدر العبد أن يأتي بالفرائض كلها وما يستطيع من النوافل فهو المطلوب والمحبوب أما في حالة التزاحم بين الفريضة والنافلة فإن العبد يقدم الفريضة ولو فاتت النافله ؛ لأن الفرض أحب إليه سبحانه مما هو دونه، ويصدق ذلك قوله ﷺ فيما رواه عن ربه سبحانه في الحديث القدسي : « **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى**

---

[١] انظر الوابل الصيب ص ١٧ تحقيق مصطفى العدوي .

أحبه ... الحديث »[١].

ويشرح الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى هذا المعنى فيقول : « ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية ، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته ، وفي دخول ما أوجبه المكلف على نفسه نظر للتقييد بقول افترضت عليه ، إلا أن أخذ من جهة المعنى الأعم ، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله .

قال الطوفي : الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب ، فكانت الفرائض أكمل ، فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقريباً ، وأيضاً فالفرض كالأصل والأس والنفل كالفرع والبناء ، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية ؛ فكان التقرب بذلك أعظم وقال ابن هبيرة : يؤخذ من قوله « ما تقرب إلخ » أن النافلة لا تقدم على الفريضة ، لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة ، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب انتهى..

---

[١] أخرجه البخاري ك. الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم[١] : « **انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته** » الحديث بمعناه فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها كما قال بعض الأكابر : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور »[٢] .أ.هـ.

وعندما يكون العمل الصالح في رتبة واحدة ـ كأن يكون في رتبة الواجبات أو المستحبات ـ فإن المطلوب من العبد أن يأتي بكل الواجبات قدر الاستطاعة على وجه الحتم والإلزام وأن يكثر من النوافل على وجه الاستحباب ؛ كل هذا عندما يمكن الجمع بين فعل جميع الواجبات أو فعل المستحبات ، أما إذا تزاحم فعل الأعمال الصالحة ، وكانت كلها واجبة أو مستحبة ؛ كأن يتزاحم فعل واجبين

---

[١] الحديث ليس في مسلم ، ولكن أخرجه أحمد (٢/٢٩٠،٤٢٥) وأبو داود (٨٦٤،٨٦٥) والنسائي (١/٢٣٢،٢٣٣) والترمذي (٤١٣) وابن ماجة (١٤٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه أحمد (٤/١٠٣) ، وأبو داود (٨٦٦) ، وابن ماجة (١٤٢٦) من حديث تميم الداري ﷺ ، وأخرجه أحمد (٤/٦٥) ، (٥/٣٧٧) من حديث رجل من أصحاب النبيﷺ .

[٢] فتح الباري ١١/٣٥١ باختصار .

في وقت واحد أو مستحبين في وقت واحد ، ولا يمكن أداء أحد العملين إلا بتفويت الآخر ، فإنه في هذه الحالة ينظر إلى أفضل العملين وأحبهما إلى الله سبحانه فيفعل ولو أدى إلى ترك العمل المفضول ، ولكن ما ضابط التفاضل بين الأعمال الصالحة التي هي من رتبة واحدة ؟ يجيب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ذلك ويذكر أقوالاً أربعة في تحديد أفضل العبادات ، ويختار القول الرابع لشموله واستناده إلى الدليل الشرعي ؛ فيقول رحمه الله تعالى : « ثم أهل مقام (إياك نعبد) لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، **فهم في ذلك أربعة أصناف** :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها .

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثاً لا أصل له « **أفضل الأعمال أحمزها** » أي أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني قالوا : أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ، فرأواه أفضل من ذي النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ : « **الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله** » .

رواه أبو يعلى[١]، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النُفَّاع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟ قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب[٢] .

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : « **لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم** »[١] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي ، واحتجوا بقوله ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من**

---

[١] أبو يعلى (٦/ح٣٣١٥) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك ، كذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٨) ، وذكر الحافظ الحديث في المطالب العالية (٨٩٧) ثم قال : تفرد به يوسف وهو ضعيف جداً .

[٢] طرف من حديث أبي الدرداء مرفوعاً أخرجه أحمد (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٤٦١) والترمذي (٢٦٨٢) بلفظ « **من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاءً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر** »

قال الحافظ في الفتح (١٩٣/١) : « صححه الحاكم وحسنه حمزة الكناني ، وضعفه بعضهم باضطراب في سنده ولكن له شواهد يتقوى بها »

[١] البخاري (٣٧٠١) ك . فضائل الصحابة، باب مناقب علي ﷺ ، ومسلم (٢٤٠٦) ك. فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ﷺ ؛ من حديث سهل بن سعد ﷺ .

أجورهم شيء »[١] وقال ﷺ : « **إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير** »[٢] وبقوله ﷺ : « **إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في البحر ، والنملة في جحرها** »[٣] .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، ما دام نفعه الذي نسب إليه .

الصنف الرابع قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

---

(١) مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) طرف من حديث أبي أمامة ﷺ أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)؛ قال أبو أمامة : (ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم ، فقال رسول الله ﷺ « **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم** » ، ثم قال رسول الله ﷺ « **إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير**»

(٣) انظر ما تقدم في الصفحة السابقة .

والأفضـــل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضـــل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضـــل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضـــل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل .

والأفضـــل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضـــل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضـــل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخيرة من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته وحضور جنازته ، وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى

نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ؛ فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم فهذا هو العبد المطلق »[1] .أ.هـ.

ويضاف إلى ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعض الأمثلة على تزاحم الواجبات وأيها يقدم عند التزاحم ؛ ومن ذلك ما يلي :

• إذا ضاق وقت صلاة حاضرة وفائتة فيقدم أداء الحاضرة على الفائتة في الأداء .

• وكذلك إذا تزاحم واجب بأصل الشرع وواجب بالنذر ؛ كمن نذر أن يتصدق وعليه زكاة ، ولا يمكنه أن يؤدي الواجبين معاً فإنه يؤدي الزكاة ولو فات الوفاء بالنذر .

---

[1] مدارج السالكين ١/٨٥-٩٠ باختصار .

ومثال ذلك أيضاً لو ضاق الوقت على قضاء رمضان ونذر صوم فعليه أن يقدم القضاء على النذر .

• وكذلك لو تزاحم الواجب العيني المتعلق بمصلحة عامة للمسلمين مع واجب عيني متعلق بمصلحة خاصة فإن الواجب العام مقدم على الخاص كما لو تعارض أداء الجهاد العيني مع طاعة الوالدين .

• وكذلك لو تعارض واجب مقطوع بوجوبه مع واجب مختلف في وجوبه ؛ فإن الواجب المقطوع بوجوبه يقدم على المختلف فيه .

والأمثلة في ذلك كثيرة ، وبالجملة فقواعد التعارض بين المصالح بعضها مع بعض ، أو بين المفاسد ، أو بين المفاسد و المصالح هي من هذا الباب والله أعلم .

أصل آخر للتفاضل بين الأعمال الصالحة وأحبها إلى الله تعالى وهو ما داوم عليه صاحبه وقد ذكر هذا الأصل الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى - في كتابه القيم (المحجة في سير الدلجة) حيث قال : « وقد أشار النبي ﷺ في هذه الأحاديث المشار إليها في أول الجزء من رواية عائشة وأبي هريرة[1] رضي الله عنهما إلى أن أحب الأعمال إلى الله عز

---

[1] يشير إلى حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « **سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عملُهُ الجنة ، وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله عز وجل** =

وجل شيئان : **أحدهما** : ما داوم عليه صاحبه وإن كان قليلاً ، وهكذا كان عمل النبي ﷺ وعمل آله وأزواجه من بعده ، وكان ينهى عن قطع العمل ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « **لا تكن مثل فلان ؛ كان يقوم الليل فترك قيام الليل** »[١] وقال ﷺ :« **يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ؛ يقول: دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء** »[٢] قال الحسن : إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً على طاعة الله عز وجل فبغاك وبغاك فإن رآك مداوماً ملَّك ورفضك ، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك .

والثاني : أن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما كان على وجه السداد والاقتصاد والتيسير دون ما كان على وجه التكلف لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما : « **سددوا وقاربوا** » والمراد بالتسديد : العمل بالسداد وهو القصد ، والتوسط في العبادة ؛ فلا

= **وإن قل** » : البخاري ك . الرقاق (٦٤٦٤) ، مسلم (٢٨١٨) وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فهو أن النبي ﷺ قال : « **إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة** » البخاري ك. الإيمان (٣٩) ، والنسائي (١٢١/٨) .

[١] البخاري ك. التهجد (١١٥٢) ، مسلم .ك الصوم (ح١١٥٩) .

[٢] البخاري ك. الدعوات (٦٣٤٠) ، مسلم .ك الذكر والدعاء (ح٢٧٣٥) .

يقصر فيما أمر به ، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه . قال النضر ابن شميل : السداد القصد في الدين والسبيل . وكذا المقاربة ، والمراد: التوسط بين الإفراط والتفريط ، فهما كلمتان بمعنى واحد ومتقارب . وهو المراد بقوله ﷺ في الرواية الأخرى: « **عليكم هدياً قاصداً**[1] »[2] .

المسألة الرابعة : أثر العمل الصالح في دخول الجنة والنجاة من النار :

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « **سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخِل الجنةَ أحداً عملُه** » **قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٢٢)،(٥/٣٥١) ، وابن خزيمة في صحيحه (١١٧٩) ، وابن أبي عاصم في السنة (ظلال الجنة/ح٩٥) ، والحاكم في المستدرك (١/٣١٢) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال خرجت ذات يوم أمشي لحاجة ، فإذا أنا برسول الله ﷺ يمشي فظننته يريد حاجة ، فجعلت أكف عنه ، فلم أزل أفعل ذلك حتى رآني ، فأشار إليَّ ، فأتيته فأخذ بيدي ، فانطلقنا نمشي جميعاً ، فإذا نحن برجل بين أيدينا يصلي ، يكثر الركوع والسجود ، فقال رسول الله ﷺ أترى يرائي ؛ فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فأرسل يده وطبق بين يديه ثلاث مرات يرفع يديه ويصوبهما ويقول : « **عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً قاصداً ، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه** » .

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وصحح إسناده الألباني في ظلال الجنة .

(٢) المحجة في سير الدلجة ص٥١-٥٢ .

قال : ((**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة**))[(١)] ، ويعلق الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى على هذا الحديث الشريف فيقول : ((**أما الأصل** فهو أن عمل الإنسان لا ينجيه من النار ولا يدخله الجنة ، وإن ذلك كله إنما يحصل بمغفرة الله ورحمته ، وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [آل عمران:١٩٥] وقوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [التوبة:٢١] وقوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [الصف:١١-١٢] .

فقرن بين دخول الجنة والنجاة من النار وبين المغفرة والرحمة فدل على أنه لا ينال شيء من ذلك بدون مغفرة الله ورحمته ، قال بعض السلف : الآخرة إما عفو الله أو النار ، والدنيا إما عصمة الله أو الهلكة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وكان محمد بن واسع يودع أصحابه عند موته ويقول : عليكم السلام ، إلى النار أو يعفو الله .

فأما قول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف:٧٢] وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢٤] فقد اختلف العلماء في معنى ذلك على قولين :

أحدهما : أن دخول الجنة برحمته ولكن انقسام المنازل بحسب الأعمال[1] ، قال ابن عيينة : يرون النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة بفضله واقتسام المنازل بالأعمال .

والثاني : أن الباء المثبتة في قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ باء السببية ، وقد جعل الله العمل سبباً لدخول الجنة ، والباء المنفية في قوله ﷺ : « **لن يدخل أحد الجنة بعمله** » باء المقابلة والمعاوضة ، والتقدير لن يستحق أحد دخول الجنة بعمل يعمله ، فأزال توهم من يتوهم أن الجنة ثمن الأعمال ، وأن صاحب العمل يستحق على الله دخول الجنة كما يستحق من دفع ثمن سلعة إلى صاحبها تسليم سلعته ، فنفى بذلك هذا التوهم وبين أن

---

[1] ذكره الحافظ ابن حجر عن ابن بطال ، فتح الباري ١١/٢٩٥ .

العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة ، فإنما هو فضل الله ورحمته ، فصار الدخول مضافاً إلى فضل الله ورحمته ومغفرته لأنه هو المتفضل بالسبب والمسبب المرتب عليه ، ولم يبق الدخول مرتباً على العمل نفسه وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « **إن الله عز وجل يقول للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي** »[1] .

وعند تحقيق النظر فالجنة والعمل كلاهما من فضل الله ورحمته على عبده المؤمن ، ولهذا يقول أهل الجنة عند دخولها : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٤٣] فلما اعترفوا لله بنعمته عليهم بالجنة وبأسبابها من الهداية ، وحمدوا الله على ذلك كله جوزوا بأن نودوا : ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣] فأضيف العمل إليهم وشكروا عليه .

ومما يتحقق به معنى قول النبي ﷺ : « **لن يدخل أحداً الجنة عملُهُ** » أو « **لن ينجي أحداً عمله** » ، أن مضاعفة الحسنات إنما هي من فضل الله عز وجل وإحسانه ، حيث جازى بالحسنة عشراً ثم ضاعفها

---

[1] البخاري ك. التفسير (٤٨٥٠) ، مسلم .ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ح٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فهذا كله فضل منه ، ولو جازى بالحسنة مثلها كالسيئات لم تقو الحسنات على إحباط السيئات ، فكان يهلك صاحب العمل لا محالة ، وأيضاً فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : ((**من نُوقش الحساب هلك**))[1] . وفي رواية ((**عُذِّب**)) ، وفي رواية ((**خُصِمَ**)) متفق عليه .

قال ابن عيينة : المناقشة سوء الاستقصاء حتى لا يترك منه شيء . وقال ابن يزيد : الحساب الشديد الذي ليس فيه شيء من العفو ، والحساب اليسير الذي تغفر ذنوبه وتقبل حسناته ، فتبين بهذا أنه لا نجاة للعبد بدون العفو والرحمة والتجاوز ، وأنه متى أقيم العدل المحض على عبد هلك .

ومما يبين ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] فهذا يدل على أن الناس يُسألون عن النعيم في الدنيا وهل قاموا بشكره أو لا ؟ فمن طولب بالشكر على كل نعمة من عافية وصحة جسم وسلامة حواس وطيب عيش واستقصي ذلك عليه ، لم تف أعماله كلها بشكر بعض هذه النعم ، وتبقى سائر النعم غير مقابلة

---

[1] البخاري ك. الرقاق باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٧) ، ومسلم ك. الجنة (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

بشكر فيستحق صاحبها العذاب بذلك، وخرَّج الخرائطي في كتاب الشكر من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « **يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقف بين يدي الله عز وجل فيقول لملائكته : انظروا في عمل عبدي ونعمتي عليه ، فينظرون فيقولون : ولا بقدر نعمة واحدة من نعمك عليه ، فيقول : انظروا في عمله سيِّئه وصالحه ، فينظرون فيجدونه كفافاً ، فيقول : عبدي قد قبلت حسناتك وغفرت لك سيئاتك ، وقد وهبت لك نعمي فيما بين ذلك** »[1].

فمن حقق معرفة هذه الأمور عرف أن العمل وإن عظم فإنه لا يستقل بنجاة العبد ، ولا يستحق به على الله دخول الجنة ، ولا النجاة من النار ، وحينئذ فيفلس العبد من عمله ويأس من الاتكال عليه ومن النظر إليه وإن كثر العمل وحسن ، فكيف بمن ليس له كثير عمل وليس له عمل حسن ؟ فإن هذا ينبغي أن يشغله الفكر في التقصير في عمله ، ويشتغل بالتوبة من تقصيره والاستغفار منه .

فأما من حَسُن عمله وكثر ، فإنه ينبغي أن يشتغل بالشكر عليه فإن ذلك من أعظم نعم الله على عبده ، فيجب مقابلته بالشكر عليه وبرؤية التقصير في القيام بشكره ، كما كان وهيب بن الورد إذا سئل

---

[1] أخرجه الحاكم في مستدركه ك . التوبة ٢٥٢/٤ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

عن أجر عمل من الأعمال يَقُول : لا تسألوا عن أجره ولكن سلوا عما يجب على من هُدي له من الشكر عليه[١]، وكان أبو سليمان يقول: كيف يعجب عاقل بعمله ؟ وإنما يُعد العمل نعمة من نعم الله عز وجل وإنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع ، إنما يعجب بعمله القدرية[٢]يعني الذي لا يرون أن أعمال العباد مخلوقة لله عز وجل .

فإذا تقرر هذا الأصل الشريف العظيم وعُلم أن العمل بنفسه لا يوجب النجاة من النار ولا دخول الجنة ، فضلاً عن أن يوجب بنفسه الوصول إلى أعلى ما في الجنة من منازل المقربين ، والنظر إلى وجه رب العالمين ، وإنما ذلك كله برحمة الله وفضله ومغفرته ، فذلك يوجب على المؤمن أن يقطع نظره عن عمله بالكلية وأن لا ينظر إلا إلى فضل الله ومنته عليه .

فيتعين حينئذ على العبد المؤمن الطالب للنجاة من النار ولدخول الجنة وللقرب من مولاه والنظر إليه في دار كرامته ، أن يطلب ذلك بالأسباب الموصلة إلى رحمة الله وعفوه ومغفرته ورضاه ومحبته ؛ فبها

---

(١) أبو نعيم في الحلية ٨/١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ٩/٢٦٣ .

ينال ما عند الله من الكرامة ؛ إذ الله سبحانه وتعالى قد جعل للوصول إلى ذلك أسباباً من الأعمال التي جعلها موصلة إليها وليس ذلك موجوداً إلا فيما شرعه الله لعباده على لسان رسوله وأخبر عنه رسوله ﷺ أنه يقرب إلى الله ويوجب رضوانه ومغفرته ، وأنه مما يحبه الله ، أو أنه من أحب الأعمال إلى الله عز وجل وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] فالواجب على العبد البحث عن خصال التقوى وخصال الإحسان التي شرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، والتقرب بذلك إلى الله عز وجل فإنه لا طريق للعبد يوصله إلى رضا مولاه وقربه ورحمته ومغفرته سوى ذلك »[1] .أ.هـ.

وهذا الذي ذكره الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى عن الأعمال الصالحة وأنها سبب في الحصول على رحمة الله عز وجل وتفضله على عبده بدخول الجنة ، وليست ثمناً ولا عوضاً للجنة ، هذا هو الذي هدى الله عز وجل إليه أهل السنة والجماعة وكانوا وسطاً بين الجبرية الذي لا يربطون بين العمل والجزاء البتة ، وبين القدرية الذين جعلوا

---

[1] المحجة في سير الدلجة من ص ٢٥-٤٥ (باختصار) .

الثواب بمحض الأعمال وثمناً لها ، وهذا ما قرره وفصله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله عن طائفتي الجبرية والقدرية : « وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل ، وبينهما أعظم التباين .

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة ، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته ، وينعِّم من أفنى عمره في معصيته ، وكلاهما بالنسبة إليه سواء ، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً ، وأكثر وأفضل درجات ، والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح ، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمناً لها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن .

فقاتلهم الله ، ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به ! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد ، حتى قالوا : إن أعطاه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل .

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة

والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب ، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه ، وصدقته على عبده أن أعانه عليها ووفقه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحَبَّبها إليه ، وزينها في قلبه ، وكرَّه إليه أضدادها ، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غايتها إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه ، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها ، فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل ، كما قال : « **لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله ، وفي لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، وفي لفظ: « لن ينجى أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل** »[1] وأثبت سبحانه دخول

---

[1] سبق تخريجه انظر ص ١٣٨ بالهامش ، ١٤١.

الجنة بالعمل ، كما في قوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢] ولا تنافي بينهما ، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد ؛ فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها ، رداً على القدرية المجوسية ، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة .

وهذه الطائفة من أجهل خلق الله ، وأغلظهم عنه حجاباً ، وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة ، ويكفي في جهلهم بالله أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه في منته ، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة ، وأعظمهم منه منزلة وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة وأعظمهم إقراراً بها ذكراً لها وشكراً عليها ومحبة له لأجلها ، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته ؟ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧].

واحتمال منة المخلوق إنما كانت نقصاً لأنه نظيره ، فإذا منَّ عليه استعلى عليه ، ورأى الممنون عليه نفسه دونه ، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون : « الله

ورسوله أمنَّ)) ولا نقص في منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه في احتمالها ، وكذلك السيد على عبده ، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم ؛ بلا عوض منهم البتة ؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده ؛ فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها وكملها لهم ، وقبلها منهم على ما فيها ، وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فهذه باء السببية ، رداً على القدرية والجبرية ، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ، ولا هي أسباب له ، وإنما غايتها أن تكون أمارات .

قالوا : وليست أيضاً مطردة لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة .

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء ، كما هي مبطلة لقول أولئك ، وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين ، وتبين لمن له قلب ولب مقدار قول أهل السنة وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعاً وقدراً، وترتيبها عليها عاجلاً

وآجلاً .

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل ، بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣] و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾ [الجمعة:٤])[1] .أ.هـ.

المسألة الخامسة : من ثمرات العمل الصالح :

للعمل الصالح الذي توفرت شروطه ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة ؛ أذكر منها على وجه الاختصار ما يلي :

١- البركة في العمر والرزق على مستوى الفرد والمجتمعات ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال الله عز وجل : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧ ﴾ [الجن:١٦-١٧] .

٢- الأمن من الخوف والجوع والكوارث ؛ قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ

---

[1] مدارج السالكين ١/٩٣-٩٦ .

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

٣- تفريج الكربات وتيسير الأمور ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤] وتقوى الله عز وجل هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه بإخلاص ومتابعة وهذا هو العمل الصالح ، ولا ننسى في هذا المقام حديث أصحاب الغار الذين كان توسلهم بأعمالهم الصالحة سبباً في تفريج كربتهم .

٤- الأُنس بالله عز وجل الذي يورث السعادة والطمأنينة في جميع الأحوال سرائها وضرائها ؛ قال الله عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] فحياة المؤمن العامل للصالحات أطيب وأهنأ وأسعد ممن أعرض عن الله عز وجل فكانت معيشته ضنكاً ونكداً ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١] .

٥- التمكين للذين يعملون الصالحات في الأرض ونصر الله عز وجل لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور:٥٥] .

٦- نور الوجه وبَهَاؤُه كما في قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩] .

٧- قوة القلب وشجاعته وثباته واستنارة العقل وصفاؤه ، فلا تجد صاحب العمل الصالح التارك لما يسخط الله تبارك وتعالى إلا قوي القلب رابط الجأش ، لا يستخفه المبطلون ولا تزعزعه الفتن ولا يطيش عقله عندما تحار العقول وتحل النوازل وتضطرب الأفهام ، وهذا بسبب الأعمال الصالحة التي يثبت بها الله عز وجل عباده الصالحين وأهمها صحة التوحيد وصدق التوكل وفعل الطاعات واللجوء إلى الله عز وجل ، وحري بمن هذه حاله أن يثبته الله عز وجل ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه سبحانه كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

ولقوله ﷺ « **بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم** »[١] .

٨- عزة النفس وعلو الهمة والتعلق بمعالي الأمور وترك سفاسفها .

٩- استقباح المعاصي والنفور منها ومحو ما عمل العبد منها كما في قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤]

١٠- محبة الله عز وجل لمن يتقرب إليه بالعمل الصالح وإلقاء القبول والمحبة والهيبة له بين الناس كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم:٩٦] وقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] ولما جاء في الحديث القدسي : « **...وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ...** »[٢] .

١١- العمل الصالح يرفع الكلام الطيب وبدونه لا يصعد إلى الله عز وجل قال الله سبحانه : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

---

[١] مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ووجه دلالة الحديث أن من معانيه أن تقديم الأعمال الصالحة قبل نزول الفتن من أسباب الثبات عند حدوثها .

[٢] البخاري ك الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) .

يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، ومن ذكر الله ولم يؤدي فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والسدي والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد من السلف ، وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام ، وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل))[1].

١٢- حسن الخاتمة وتنزل ملائكة الرحمة عند الموت لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [فصلت:٣٠] .

١٣- مرافقة الأنبياء والشهداء والصالحين يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] .

١٤- الأمن من فزع يوم القيامة وأهوالها ، والنجاة من النار والفوز

---

[1] تفسير ابن كثير عند الآية (١٠) في سورة فاطر .

برضوان الله تعالى وجنته لقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل:٨٩] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة:٧-٨] .

وهذه أعظم الثمار وأزكاها ، إذ هي غاية الغايات ومن أجلها يتنافس المتنافسون ، ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن من ضرب في كل مرضاة الله تعالى بسهم من الأعمال الصالحة وصار يتنقل في منازل العبودية وما يحبه الله عز وجل ، ويذكر ثمار ذلك في الدار الآخرة فيقول : « وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة أثراً وجزاء ولذة وألماً يخصه لا يشبهه أثر الآخر وجزاؤه ، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات ، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها ، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه .

وقد أشار النبي ﷺ إلى أن كمال ما يُستمتع به من الطيبات في الآخرة

بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا « ... **فرأى قنواً من حشف معلقاً في المسجد للصدقة فقال : إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة** »[١] فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها .

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله وما يجري فيه من الأمور المتنوعة **فمنها** : خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره ؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله إن خف خف وإن ثقل ثقل .

ومنها : استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس ؛ إن كان له من الأعمال الصالحة والخالصة والإيمان ما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن ، وإن كان ضاحياً هنا للمناهي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد .

ومنها : طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه وتهوينه عليه ؛ إن طال وقوفه في الصلاة ليلاً ونهاراً لله وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته

---

[١] أخرجه أحمد (٦/٢٣، ٢٨) ، وأبو داود (١٦٠٨)، والنسائي (٥/٤٣، ٤٤) ، وابن ماجة (٨١٢١) من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ .

خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه ، وإن آثر الراحة والدعة هنا والبطالة والنعمة طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه .

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٧] فمن سبح الله ليلاً طويلاً لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه بل كان أخف شيء عليه .

ومنها : أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمله ثقل الحق في هذه الدار ، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سُئل وأخذه إذا بُذل كما قال الصديق في وصيته لعمر: « **واعلم أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقل ذلك عليهم في دار الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في دار الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً** » .

ومنها : أن ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها ؛ فمن وردها في هذه الدار وشرب منها وتضلع ورد هناك حوضه وشرب منه وتضلع فله ﷺ حوضان عظيمان: حوض في الدنيا وهو سنته وما جاء به ، وحوض في الآخرة ؛ فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة ، فشارب ومحروم ، ومستقل ومستكثر ، والذين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ويؤثرون عليها غيرها ، فمن ظمأ من سنته في هذه الدنيا ولم يكن له منها شرب فهو في الآخرة أشد ظمأً وأحر كبداً وإن الرجل ليلقى الرجل فيقول : يا فلان أشربت ؟ فيقول : نعم والله فيقول : لكني والله ما شربت واعطشاه .

فرِدْ أيها الظمآن والورد ممكن ... فإن لم ترد فاعلم بأنك هالك
وإن لم يكن رضوان يسقيك شربة ... سيسقيكها إذ أنت ظمآن مالك
وإن لم ترد في هذه الدار حوضه ... ستصرف عنه يوم يلقاك آنك

ومنها : قسمة الأنوار في الظلمة دون الجسر ؛ فإن العبد يعطى من النور هناك بحسب قوة نور إيمانه ويقينه وإخلاصه ومتابعته للرسول ﷺ في دار الدنيا ؛ **فمنهم** : من يكون نوره كالشمس ودون ذلك كالقمر ودونه كأشد كوكب في السماء إضاءة ، **ومنهم** : من يكون نوره

كالسراج في قوته وضعفه وما بين ذلك ، **ومنهم** : من يعطى نور على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفي أخرى بحسب ما كان معه من نور الإيمان في دار الدنيا فهو هذا النور بعينه أبرزه الله لعبده في الآخرة ظاهراً يُرى عياناً بالأبصار ، ولا يستضيء به غيره ، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه ، وإن كان له نور مشى في نوره وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره .

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر غير مستمر ولا متصل بباطنه ولا له مادة من الإيمان ؛ أُعطي في الآخرة نوراً ظاهراً لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه .

ومنها : أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا ؛ فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك وأبطأهم هنا أبطأهم هناك .

وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك ، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك ، ويكون تأثير الكلاليب فيه هناك على حسب تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه ها هنا فناج مسلم ومخدوش مسلم ومخزول أي مقطع بالكلاليب مكردس في النار

كما أثرت فيهم تلك الكلاليب في الدنيا ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦] ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦])[1] .أ.هـ.

---

[1] اجتماع الجيوش الإسلامية ت.د. عواد المعتق ص٨٣-٨٧ (باختصار) .

الأصل الثالث : التواصي بالحق

وهذا هو الأصل الثالث من أصول النجاة من الخسران ، والمذكور في هذه السوره العظيمة في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، فما هو المراد بالتواصي بالحق والذي لا بد منه للنجاة من الخسران ؟

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى : « وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ يقول : وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه واجتناب ما نهى عنه فيه »[1].أ.هـ.

وقال الألوسي رحمه الله تعالى : « ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة »[2].أهـ.

وقد نبه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى إلى أن موضوع السورة كلها هو الحق فقال : « وبيان ذلك أن المراتب أربعة و باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله :

إحداها : معرفة الحق .

الثانية : عمله به .

---

[1] تفسير الطبري ٣٠/٢٩٠ .

[2] روح المعاني ٣٠/٢٢٨ .

الثالثة : تعليمه من لا يحسنه .

الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات »[1] .أ.هـ.

ويقول الرازي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ : « فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث أنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب ، وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخلصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين

---

[1] انظر مفتاح دار السعادة (٥٩) .

فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل)[١].أ.هـ.

ويقول البقاعي رحمه الله تعالى :« ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بلسان الحال أو المقال ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته ـ فلا يصح بوجه نفيه ـ من قول أو عمل أو اعتقاد أو غيره من فعل أو ترك »[٢].أ.هـ.

والقيام بالحق يكون بفعل المأمور ظاهراً وباطناً وترك المحظور ظاهراً وباطناً ، ولما كان كثير من أهل البدع يدعي أنه على الحق لأنه يرجع إلى الكتاب والسنة بزعمه ؛ كان لزاماً أن يقيد الرجوع إلى الكتاب والسنة بفهم الصحابة ﷺ ؛ وبذلك يكون أهل السنة والجماعة أسعد الناس بالحق .

والله عز وجل هو الحق ، ووعده حق كما جاء في حديث استفتاح صلاة الليل وفيه : « **ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ... الحديث** »[٣] والحق هو الثابت ، والحق اسم من أسماء الله عز وجل الحسنى فالله عز وجل

---

(١) التفسير الكبير ٨٥/٣٠ .

(٢) نظم الدرر ٢٣٩/٢٢ .

(٣) البخاري .ك التهجد (١١٢٠) باب التهجد بالليل .

هو الحق وهو المعبود بحق وكل معبود دونه باطل ، والحق نقيض الباطل ويضاده كما قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨] وهو الذي يحق الحق بكلماته ، ويحكم بين خلقه بالحق ويوجد الأشياء بالحق بحسب مقتضى الحكمة ، فاسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته وأفعاله ، وفعل ما أمر به سبحانه باطناً وظاهراً واجتناب ما نهى عنه سبحانه ظاهراً وباطناً هو من الحق الذي يجب القيام والتواصي به ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل ، فهو على الحق في أقواله وأفعاله »[1].أ.هـ.

وأحق الحق توحيد الله عز وجل ، وهو أول شيء يجب العلم به والانقياد له والتواصي به ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « وهو سبحانه خلق العالم العلوي والسفلي بسبب الحق ولأجل الحق وضمنه الحق فبالحق كان ، وللحق كان ، وعلى الحق اشتمل ، والحق هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وموجب ذلك ومقتضاه وقام

---

[1] أعلام الموقعين ١/١٦٢ .

بعدله الذي هو الحق وعلى الحق اشتمل ، فما خلق الله شيئاً إلا بالحق وللحق ونفس خلقه له حق وهو شاهد من شواهد الحق ، فإن أحق الحق هو التوحيد »[١] أ.هـ.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأقوال بعض المفسرين لمعنى التواصي بالحق ؛ يبقى بعض المسائل الخاصة التي يحسن الكلام فيها عن الحق ومعانيه والتواصي به وعلاقته في هذه السورة بما قبله من الإيمان والعمل الصالح وبما بعده من التواصي بالصبر وغير ذلك مما له علاقة بالحق والتواصي به[٢].

المسألة الأولى :

في وجه ذكر التواصي بالحق بعد العمل الصالح مع أنه من العمل الصالح :

التواصي بالحق من أفضل الأعمال الصالحة وهو يدخل دخولاً أولياً في العمل الصالح ؛ والذي سبق الحديث عنه ، ولكن إفراده هنا من بين

---

[١] مفتاح دار السعادة ص٢٠١ .

[٢] ولن نذكر في هذه المسائل مسألة وجه ذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر في جملة أصول النجاة من الخسران مع أن النجاة تتحقق بالإيمان والعمل ؛ لن نذكر هذه المسألة هنا لأنه قد سبق تفصيلها في أول البحث .ص ١٨-٢١ .

الأعمال الصالحة لبيان أهميته والتأكيد عليه ، وذكره بعد العمل الصالح من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفي ذلك يقول الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير : « وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات ، عطف الخاص على العام للاهتمام به لأنه قد يغفل عنه ويُظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته ، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره ودعوته إلى الحق »[١].أ.هـ.

المسألة الثانية :

ما وجه ذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر في جملة أصول النجاة من الخسران مع أن النجاة تتحقق بالإيمان والعمل ؟

وللجواب على هذه المسألة يرجع إلى أول البحث[٢] حيث تم تفصيل الجواب هنالك ، والحمد لله رب العالمين .

المسألة الثالثة :

إن ذكر التواصي في هذه السورة بصيغة الجمع ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ يدل على أهمية الاجتماع في أمر الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف

---

[١] التحرير والتنوير ١٥/٥٣٢ .

[٢] في ص١٨-٢١.

والنهي عن المنكر كما يؤكد على ضرورة الائتلاف وعدم الافتراق ، وأن الحق والدعوة إليه تحتاج إلى التواصي والتكاتف والتعاون ، وأن هذا من صفات الجماعة الناجية ؛ يقول الدكتور الراوي وفقه الله « وروح الجماعة سارية في صفات الذين يخرجون من الخسران فهم : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم جمع في ذواتهم وإيمانهم وأعمالهم وجمع في تواصيهم بالحق وتواصيهم بالصبر ، ولا يتصور تواصي بلا جمع ، ولا جمع يبقى بلا تواصي بالحق والصبر ، فلزوم الجماعة أمر لابد منه لمن أراد النهوض بالحق والقيام به »[١].أ.هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى : « فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة ـ أو الجماعة ـ المتضامة المتضامنة ، الأمة الخيرة الواعية القيمة ، في الأرض على الحق والعدل والخير .. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة .. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام .. هكذا يريدها أمة خيرة قوية قائمة على حراسة الحق والخير متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تتضح فيها كلمة التواصي في القرآن »[٢].أ.هـ.

---

[١] كلمة الحق في القرآن الكريم ص٧٣٩ .

[٢] في ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ .

ويشهد لذلك الآيات الكثيرة في كتاب الله عز وجل التي تأمر بالاجتماع وتنهى عن الفرقة مثل قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥] .

المسألة الرابعة :

يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ أن لزوم الحق علماً وعملاً ودعوة وتعليماً من الأمور الشاقة التي تحتاج إلى التواصي والتعاون ؛ وذلك لما يعترض طريق الحق من العقبات والمرارات والتحديات ، وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : « والتواصي بالحق ضرورة ؛ فالنهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية والأخوة في العبء والأمانة ؛ فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف ؛ تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله »[1]

---

[1] في ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ .

ويقول الرازي رحمه الله تعالى في مسائله حول الآية: « المسألة الثانية: دلت الآية على أن الحق ثقيل وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي »[١].أ.هـ.

والعقبات التي تصرف الناس عن الحق كثيرة ، لذا لزم على من أراد لنفسه النجاة أن يتواصى مع إخوانه على لزوم الحق والتحذير مما يصد عنه من العقبات والصوارف ؛ ومن أخطر هذه الصوارف الشبهات المتمثلة في التضليل ولبس الحق بالباطل ، والشهوات المتمثلة في الهوى والركون إلى الدنيا « فهذا علي بن أبي طالب ﷺ كان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ؛ قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق »[٢] .

ويضرب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى مثالاً للحق والعقبات من حوله فيقول : « مثل الحق مثل طريق مستقيم واسع وعلى جنبيه قطاع ولصوص وعندهم خواطئ قد ألبسوهن الحلي والحلل وزينوهن للناظر، فيمر الرجل بالطريق فيتعرضن له فإن التفت إليهن طمعن في حديثه فألقين إليه الكلام ، فإن راجعهن وأجابهن دعينه إلى الذبح فإذا دخل

---

[١] التفسير الكبير ٣٠/٨٥ .

[٢] الجواب الكافي ص٢٥ .

عرين الموت صار في قبضتهن أسيراً أو قتيلاً ، فكيف يحارب قوماً من هو أسير في قبضتهم قتيل سلاحهم ؛ بل يصير هذا عوناً من أعوانهم قاطعاً من قطاع الطريق ، ولا يعرف حقيقة هذا المثل إلا من عرف الطريق المستقيم وقطاع الطريق ومكرهم وحيلهم وبالله التوفيق وهو المستعان ؛ وقد نصب الله سبحانه الجسر الذي يمر الناس من فوقه إلى الجنة ونصب بجانبيه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ؛ فهكذا كلاليب الباطل من تشبيهات الضلال وشهوات الغي تمنع صاحبها من الاستقامة على طريق الحق وسلوكه والمعصوم من عصمه الله »[1].أ.هـ.

كما يصور رحمه الله تعالى الصادين عن الحق ووسائلهم في ذلك مع الحق وأهله فيقول : « فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين ، لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

[1] الصواعق المرسلة ٤/١٢٥٦ .

وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور:٤٨-٥٠]

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات ، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً ، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة ، وهذا يظهر كثيراً في الدنيا ، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله ، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقت الحقائق ، وفاز المحقون وخسر المبطلون »[1].أ.هـ.

ومن الأسباب الصادة عن الحق والتي منبعها الهوى : الحسد ، والبغي ، والظلم ، والكبر ، والعناد ، وحب الشهرة ، والجاه ، وإرضاء الناس بسخط الله تعالى ، والغرور بالحياة الدنيا، وطول الأمل .

ويصور الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه الصوارف وأثرها في الصد عن الحق ومعاداة أهله فيقول : « والأسباب المانعة من قبول

---

[1] مدارج السالكين ١/٥٣ .

الحق كثيرة جداً ؛ فمنها : الجهل به وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ؛ فإن من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله ، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من القبول أقوى ، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع ، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه قوي المانع من القبول جداً ، فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ازداد المانع من قبول الحق قوة ؛ فإن هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه فاختار الكفر على الإسلام بعد ما تبين له الهدى .

ومن أعظم هذه الأسباب : الحسد فإنه داء كامن في النفس ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه وأوتي ما لم يؤت نظيره فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه ، وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد ؟ فإنه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة ؛ وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى ابن مريم وقد علموا علماً لا شك فيه أنه

رسول الله جاء بالبينات والهدى فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان وأطبقوا عليه وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والأمراء ، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة لم يأت بشريعة يخالفها ولم يقاتلهم ، وإنما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً ، وجاء مكملاً لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الإيمان ؛ فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع مبكتاً لهم بقبائحهم ومنادياً على فضائحهم ومخرجاً لهم من ديارهم »[1].أ.هـ.

والحاصل من كل ما سبق أن الحق ثقيل والعقبات التي تصرف عنه وتصد الناس عن قبوله كثيرة ، ولذا جاء في السورة أن من صفات الناجين من الخسران تواصيهم بالحق ولزومه ، وبدون التواصي فإن النفوس غالباً ما تضعف أمام شبهات الباطل وشهواته ، وإذا كثر الباطل على النفوس واعتادت سماعه ورؤيته ولم يوجد التواصي بالحق ورد الباطل فإن ذلك يكسبها تحريفاً للحق وحباً للباطل ، فإذا جاء الحق بعد ذلك ردته أو كذبت به إن قدرت على ذلك ، وإلا حرفته ولبسته بالباطل ، ونظراً لثقل الحق فقد كان السلف يتواصون به

---

[1] هداية الحياري ص١٦ .

وينبهون على ثقله كما جاء ذلك في وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والتي فيها : « وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف »[1] .

المسألة الخامسة :

انقسام الناس إزاء الحق : ينقسم الناس إزاء الحق ولزومه إلى الأصناف التالية :

١- صنف أخطأ الحق وضل عنه إما بجهل أو شبهة أو تضليل ، وهذا من جنس النصارى الضالين .

٢- صنف علموا الحق وتبين لهم الرشد من الغي فاستكبروا واتبعوا أهواءهم وتنكبوا الحق إيثاراً لدنيا فانية أو حسداً من عند أنفسهم ، وهذا من جنس اليهود المغضوب عليهم .

٣- أسعد الناس بالحق ؛ وهم الذين علموا الحق وعرفوه وانقادوا له وعملوا به ودعوا إليه ، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

---

[1] الزهد لابن المبارك ، نقلاً عن كتاب الصلاة لابن القيم ص١٠١ .

وأصحاب هذه الأصناف الثلاثة ومن في معناهم جاء ذكرهم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ؛ حيث يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين علموا الحق واتبعوه وتواصوا به كما في سورة العصر ، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وصدوا عنه أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره ، وهم الذين ندعو الله سبحانه في كل صلاة في آخر سورة الفاتحة أن يجنبنا طريقهم ؛ طريق المغضوب عليهم والضالين ، وعن هذه الأصناف الثلاثة يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له ؛ فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة؛ فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه ، والجاهل بالحق هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل ؛ فكل منهما ضال مغضوب عليه ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به »[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر : « ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل

---

[1] مدارج السالكين ١/١١ .

إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق ، والبغي يمنعه من إرادته ؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة ؛ فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال وكان السلف يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى »[1].أ.هـ.

ويزيد الأمر وضوحاً حول فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فيقول: « وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ؛ فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .. فبالصبر تُترك الشهوات وباليقين تُدفع الشبهات كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص:٤٥] وفي بعض المراسيل : (إن الله يحب البصر الناقد عند ورود

---

[1] بدائع الفوائد ٢/٢٦٨ .

الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات »[١].أ.هـ.

مما سبق يتضح لنا أن أسعد الناس بالحق هم الذين علموه وانقادوا له واتبعوه وتواصوا به وبالصبر عليه ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يدفع الشهوات .

المسألة السادسة :

لزوم الحق والتواصي به له صور وعلامات لا بد من ظهورها على العبد حتى يعد من المتواصين بالحق ، ومن هذه العلامات والصور :

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، وبدون ذلك أو بضعفه ينعدم أو يضعف التواصي بالحق ، لأن التواصي بالحق هو أصل الأمر والنهي والدعوة والجهاد ، وهو صمام الأمان للأفراد والمجتمعات وبدونه يشقى الناس وتحل بهم المصائب والعقوبات والشقاء في الدنيا والآخرة ، والواقع شاهد على ذلك ، فما من مجتمع قل فيه التواصي بين أهله بالحق وضعفت فيه شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حل الفساد والظلم والشقاء بينهم ، وعلى العكس من ذلك عند ما يوجد التواصي بالحق والدعوة إلى الله عز وجل فإن الخير والسعادة والنماء توجد ويهنأ الناس بها ، وسواء كان

---

[١] أعلام الموقعين ١/١٣٧ .

هـذا المجتمـع صغـيراً كالأسـرة في داخـل البيـت ومجتمعـات الأقـارب والقبائل ، أو كان كبيراً كمجتمعـات المدن والدول ، وليس المقصود هنـا التفصيل في شعيرة الأمـر بالمعروف والنـهي عـن المنكر وشروطه وضوابطه ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن هذه الشعيرة هي من صميم التواصي بالحق وأن المقصر فيها بسكوته عن الحق أو قـوله الباطل قد قصر في أصل عظيم من أصول النجاة في الدنيا والآخرة له ولمجتمعه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعـــالى : « فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراءٍ مداهن - إذا لم يخف على نفسه - والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته ، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة »[1].أ.هـ.

وقول الباطل أشد من كتم الحق ؛ لأن المتكلم بالباطل لم يقصر عن قول الحق فقط بل أفسده على الناس ، فهو أشبه بمن يقذر على الناس الماء مع شدة الحاجة إليه ، بل إن جرمه أشد ؛ فإن حاجة الناس إلى معرفة الحق أشد من حاجتهم إلى الماء .

ويوجه رحمه الله تعالى اللوم والتوبيخ إلى الساكتين عن الحق والتاركين

---

[1] الجواب الكافي ص١١٣ .

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول : « وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتهك ، وحدوده تُضاع ، ودينه يُترك ، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها وهو بارد القلب ، ساكت اللسان ، شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة بما جرى على الدين ؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذَّل وجَدَّ واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه .

وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل »[1].أ.هـ.

ويكفينا قول الرسول ﷺ : « **ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم** »[2].

---

(١) أعلام الموقعين ٢/١٧٦ .

(٢) أحمد في المسند (٣/٥، ٤٤، ٤٦، ٥٣، ٨٧، ٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري بسند صحيح .

ويحسن في هذا المقام ذكر بعض المواقف المشرقة لسلفنا الصالح وهم يقولون كلمة الحق ويتواصون بها مع الناس ومع ولاة الأمر في زمانهم - لا يخشون إلا الله عز وجل - ولم يمنعهم لزومهم جماعة المسلمين وطاعة إمامهم أن يصدعوا بالحق ولا يكتموه - لا يخافون في ذلك لومة لائم - وإن من النصح للأمة وإحيائها من سباتها التذكير بمواقف سلفها الصالح في الصدع بالحق ومحاربة الباطل ، وأنهم ما كانوا في يوم من الأيام مداهنين للباطل كاتمين للحق ولا أنهم كانوا منعزلين عن حياة الناس وسياسة الأمة ، ولا أنهم كانوا يفهمون من نصوص السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين عدم مناصحتهم والصدع بالحق أمامهم وإنكار ما يظهر من المنكرات في زمانهم ، فما كان هذا حالهم ومن ظن فيهم هذا الظن فقد افترى عليهم .

ومن هذه المواقف ما يلي :

□ عن طارق بن شهاب ﷺ قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة فقال : تُرك ما هنالك ، فقال أبو سعيد ﷺ : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيـــده فـــإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[١].

وقد أنكر أبو سعيد الخدري ﷺ هذا المنكر على مروان من قبل قال أبو سعيد الخدري ﷺ : « فلما أتينا المصلى إذا بمنبر بناه كثير بن الصلت ، فإذا بمروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه ، فجبذني ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : **غيرتم والله، فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم .**

فقلت : ما أعلم والله خير مما لا أعلم »[٢] .

□ عن ابن أبي أويس ، عن أبيه عن الوليد بن داود بن محمد بن عُبادة بن الصامت عن ابن عمه عبادة بن الوليد قال : كان عُبادة بن الصامت مع معاوية رضي الله عنهما فأدَّنَ يوماً فقام خطيبٌ يمدح معاوية ويُثني عليه ، فقام عُبَادة بن الصامت بتراب في يده ، فحشاه في فم الخطيب ، فغضب معاوية ، فقال له عبادة : إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم بالحق حيث

---

[١] مسلم ك . الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) .

[٢] أخرجه البخاري (٩٥٦) ، ومسلم (٨٨٩) .

كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم ، وقال رسول الله ﷺ : ((**إذا رأيتم المداحين ، فاحثوا في أفواههم التراب**))[١] .

□ **الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وصدعه بالحق** : أصدر الخليفة المأمون أمره لواليه على بغداد - إسحاق بن إبراهيم - بضرب عنق كل من يخالف اعتقاده بخلق القرآن الكريم ، وأخذ العلماء بالرخص إلا أربعة منهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله القواريري ، وسجادة ، فأدخلوا السجن مصفدين بالأغلال ، وفي اليوم التالي جيء بهم إلى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم ، فأجاب سجادة بما ينجيه ولحق القواريري بصاحبه ، فأطلق سراحهما ، وبقي ابن حنبل وابن نوح ، أما ابن نوح فمات سجيناً في [عانة] - وهي بلدة عراقية ، وأما الإمام أحمد فنقلوه من سجن لآخر حتى انتهى المطاف به في سجن الياسرية ببغداد ، ثم نقلوه إلى حبس العامة في درب الموصلية وفي هذا السجن طرح ثمانية وعشرين شهراً ، وجلد بالسوط حتى سالت دماؤه وأشرف على الموت دون أن ينتزعوا منه أي اعتراف ببدعتهم ، ومن أقواله المأثورة : ((يا عم - عمه إسحاق بن حنبل - إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل ، متى يتبين الحق ؟)) . ولما دخل عليه

---

[١] سير أعلام النبلاء ٢/٧ ، وحديث ((إذا رأيتم المدحين)) رواه مسلم (٣٠٠٢) .

يحيى بن معين يعوده في مرضه لم يرد عليه السلام ، فما زال ابن معين يعتذر بقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦] ، وبحديث عمار ، فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر ، فقال يحيى : لا يقبل عذراً .

فلما خرج يحيى قال أحمد : يحتج بحديث عمار ، وحديث عمار : مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني ، وأنتم قيل لكم : نريد أن نضربكم ، فقال يحيى : والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك »[1].أ.هـ.

□ **الإمام النووي وجهره بالحق** : يقول علاء الدين بن العطار تلميذ الإمام النووي : وكان - النووي - مواجهاً للملوك والجبابرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل ، وتوصل إلى إبلاغها ، فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس عنهم ... فكان جواب السلطان بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب ومما جاء فيه: « ... وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

---

[1] (بتصرف واختصار) من سير أعلام النبلاء ٣٣٢/١١ ، والبداية والنهاية ٣٤٦/١٠ .

تَكْتُمُونَهُ ﴾ فوجب علينا حينئذ بيانه ، وحُرِّم علينا السكوت » .

وقال أيضاً ما موجزه : « ولا يحلُ أن يُؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ، من نقد ، أو متاع ، أو أرض ، أو ضياع تباع ، أو غير ذلك ... وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور » .

وقال في رده على تهديد السلطان : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة ؛ فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ! وأي حيلة لضعفاء المسلمين المغرقين في أقطار ولاية السلطان في كتاب كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام عليه !؟ .

وأما أنا في نفسي ؛ فلا يضرُّني التهديد ، ولا أكبر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول **الحق أينما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم** »[1] .أ.هـ.

---

[1] تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لتلميذه علاء الدين بن العطار المتوفي سنة ٧٢٤ .

□ وهذه كلمة حق صدع بها الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى يعاتب فيها نفسه وأكثر العلماء في التقصير عن قول كلمة الحق في زماننا اليوم وما حل فيه من المفاسد العظيمة والتي يجب تحذير الأمة منها والتصدي لمواجهتها فتراه يقول : « ما أقل ما قلنا (**كلمة الحق**) في مواقف الرجال ، وما أكثر ما قصرنا في ذلك ، إن لم يكن خوفاً فضعفاً ، ونستغفر الله ، وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا ، كفارة عما سلف من تقصير ، وعما أسلفنا من ذنوب ، ليس لها إلا عفو الله ورحمته ، والعمر يجري بنا سريعاً ، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها ، وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا ، وبلادنا بلاد الإسلام تنحدر في مجرى السيل ، إلى هوة لا قرار لها ، هوة الإلحاد والإباحية والإنحلال فإن لم نقف منهم موقف النذير ، وإن لم نأخذ بحجزهم عن النار ، انحدرنا معهم ، وأصابنا من عقابيل ذلك ما يصيبهم ، وكان علينا من الإثم أضعاف ما حمِّلوا .

ذلك بأن الله أخذ علينا الميثاق : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٨٧] وذلك بأن الله ضرب لنا المثل بأشقى الأمم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن

مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩] ، وذلك بأن الله وصفنا ـ معشر المسلمين ـ بأننا خير الأمم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠] فإن فقدنا ما جعلنا الله به خير الأمم ، كنا كمثل أشقاها وليس من منزلة هناك بينهما... ، وذلك بأن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحقرن أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله عليه فيه مقال ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فيَّ كذ وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى** »[1].

نريد أن ننافح عن القرآن ، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أظهرنا ، فمن متأول لآياته غير مؤمن به يريد أن يقسرها على غير ما يدل عليه صريح اللفظ في كلام العرب حتى يوافق ما آمن به ، أو ما أشربته نفسه من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها ، أو يقرِّبه إلى عاداتهم وآدابهم ـ إن كانت لهم آداب ـ ليجعل الإسلام ديناً عصرياً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم ، أو رُبي في أحضانهم !

ومن منكر لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأ يحاور ويداور، ليجعل

---

[1] ابن ماجة ٢/٢٥٢ بإسناد صحيح (أحمد شاكر) .

عالم الغيب كله موافقاً لظواهر ما رأى من سنن الكون ، إن كان يرى، أو على الأصح لما فهم أن أوربة ترى ! ... نعم ، لا بأس عليه ـ عنده ـ أن يؤمن بشيء مما وراء المادة ، إن أثبته السادة الأوربيون ! ولو كان من خرافات استحضار الأرواح ! ...

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين ، وأن نحارب ما أحدث (النسوان) وأنصار (النسوان) من منكرات الإباحية والمجون والفجور والدعارة هؤلاء (النسوان) اللائي ليس لهن رجال ، إلا رجالاً (يُشْبِهنَ) الرجال هذه الحركة النسائية الماجنة التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين ، والمخنثون من الرجال ، والمترجلات من النساء ، التي يهدمون بها كل خلق كريم ؛ يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات ، وإلى الشهوات فقط .

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين ، والصالحات من المؤمنات ـ الذين بقي في نفوسهم الحفاظ والغيرة ومقومات الرجولة ، واللائي بقي في نفوسهن الحياء والعفة والتصون ـ إلى العمل الجدي الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي المصون ، إلى حجابها الذي أمر الله به ورسوله ، طوعاً أو كرهاً .

نريد أن نثابر على ما دعونا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله

وسنة رسوله في قضائنا كله ، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين ...

نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة ، التي اصطنعها كتاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون ! يظنون أن هذا من حسن السياسة ، ومن الدعوة إلى الحق : ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ اللتين أمر الله بهما ! وما كان هذا منهما قط ، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عرض الحياة الدنيا .

وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتامين أو منفِّرين ، معاذ الله ، و« **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذيء** » كما قال رسول الله ﷺ [1] ، ولكنا نريد أن نقول الحق واضحاً غير ملتوٍ ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة ، بأحسن عبارة نستطيعها ، ولكنا نربأ بأنفسنا وبإخواننا أن نصف رجلاً يعلن عداءه للإسلام ، أو يرفض شريعة الله ورسوله ـ مثلاً ـ بأنه (صديقنا) ، والله

---

[1] أخرجه أحمد (١/٤٠٤، ٤٠٥) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣١٢، ٣٣٢) والترمذي (١٩٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ وقال الترمذي حسن غريب ، وصححه الحاكم (١/١٢) ووافقه الذهبي .

سبحانه نهانا عن ذلك نهياً جازماً في كتابه ، ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي ، فنصف أمة من الأمم تضرب المسلمين بالحديد والنار ، وتهتك أعراضهم وتنتهب أموالهم ، بأنها أمة (صديقة) أو بأنها أمة (الحرية والنور) ، إذا كان من فِعْلِهَا مع إخواننا أنها أمة (الاستعباد والنار) ! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم .

فإن عجزنا أو ذهبنا ، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيراً منا ، يرفعون هذا اللواء ، فلا يزال خفاقاً إلى السماء ، بإذن الله »[1].أ.هـ.

ولولا خشية الإطالة لذكرت مزيداً من هذه المواقف المضيئة لسلفنا الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى وما تحملوا في سبيل ذلك من الأذى والابتلاءات المضنية ، كما حصل ذلك للإمام المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وتلميذه ابن القيم ، ومن سار على دربهم في الصدع بالحق والجهاد في سبيل الله تعالى ، وكالإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ومن جاء بعده من أئمة الدعوة إلى عصرنا هذا ، وصدق الرسول ﷺ « **ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم ، ولا من**

---

[1] مقدمة كتاب : (كلمة حق) للشيخ أحمد شاكر رحمه الله مع الاختصار .

خذلهم حتى تقوم الساعة »[١].

• **ومن صور التواصي بالحق** : التواصي بالتجرد في قبول الحق والإذعان له إذا تبين على أي لسان ومن أي جهة كانت ؛ فإن التواصي بذلك ولزومه والحث عليه من علامات التواصي بالحق ، ولا يظهر هذا إلا في المحكات ؛ وذلك عندما يكون الحق على النفس أو يظهر على لسان الخصم والمبغض ، فهنا يتبين حقيقة التجرد في قبول الحق ولو على النفس والأقربين ، ولقد كان سلفنا الصالح يتواصون بلزوم الحق والتجرد في أخذه ومن ذلك :

□ ما كتبه عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بقوله : « أما بعد فالزم الحق ، ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يُقضى إلا بالحق »[٢].

□ ما كتبه أيضاً عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في كتابه المشهور في القضاء وفيه : «... ولا يمنعك من قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه

---

[١] البخاري (٣٦٤٠) ، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ ، وأخرجه البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ .

[٢] مصنف ابن أبي شيبة ٢٦٩/٧ رقم ١١٩ .

الحق ، فإن الحق قديم ، ولا يبطل الحق شيء ، وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »[١].

ومن التجرد للحق : الرجوع عن الخطأ وعدم التعصب للنفس وأخطائها ، وعدم الغضب والاشمئزاز ممن ينبه على عيوبها بل تحبه وتقبل منه نصيحته ويشكر عليها ، ومن التوجيهات السلفية في ذلك ما يلي :

□ لما ولى الصديق ﷺ الخلافة خطب خطبت المشهورة التي بين فيها معالم سياسته ، فكان مما قال فيها : « أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوموني »[٢] .

□ وأخرج ابن سعد في طبقاته أن عمر بن الخطاب ﷺ قال :« أحبَّ الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي »[٣].

□ وأوصى عبد الله بن مسعود ﷺ رجلاً فقال : « ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً ، ومن أتاك بباطل فأردده وإن كان حبيباً قريباً »[٤] .

---

[١] سنن الدارقطني ٢٠٦/٤ .

[٢] طبقات ابن سعد ٨١/٣ ، ٨٢ .

[٣] الطبقات ٢٩٣/٣ .

[٤] معجم الطبراني الكبير (٨٥٣٧) .

□ ما قاله عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لمولاه مزاحم : « إنالولاة جعلوا العيون على العوام وأنا أجعلك عيني على نفسي ؛ فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها ، أو فعلاً لا تحبه ، فعظني عنده وانهني عنه »[١] .

□ ويحكي ابن رجب رحمه الله تعالى أن ذلك كان هدياً لعامة أئمة السلف فيقول : « كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم ، يقبلون الحق ممن أورده عليهم ، وإن كان صغيراً ، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم »[٢].

□ ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على قوله ﷺ في دعائه « **وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا** » بقوله : « ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه ، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل ، سأل الله عز وجل أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق »[٣] .

---

[١] عيون الأخبار ٤١٦/١ .

[٢] الفرق بين النصيحة والتعيير ص١٠ .

[٣] إغاثة اللهفان ٢٩/١ .

□ يقول رحمه الله تعالى في شرحه لمنازل السائرين وهو يستدرك على الإمام الهروي رحمه الله تعالى بعض شطحاته : « وشيخ الإسلام - أي الهروي - حبيبنا ولكن الحق أحب إلينا منه . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : عمله خير من علمه وصدق رحمه الله فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار ، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله ، وأبى الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنى »[1] .أ.هـ.

□ ويقول أيضاً في خاتمة كتابه القيم مدارج السالكين : « فيا أيها القارئ له لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ولا تلتفت إلى قائله بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال ، وقد ذم الله تعالى من يَرُدُّ الحق إذا جاء به من يبغضه ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خلق الأمة الغضبية ؛ قال بعض الصحابة : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال »[2]أ.هـ.

---

[1] مدارج السالكين ٣/٣٩٤

[2] مدراج السالكين ٣/٥٢٢ .

• **ومن صور التواصي بالحق** التواصي بترك التعصب للنفس أو للأشخاص أو الهيئات أوالأحزاب كما مر بنا في بعض الأمثلة السابقة وإنما التعصب للحق بأن يدور العبد معه حيث دار وينبذ التقليد الأعمى والتحزب المقيت ، ويتواصى بذلك مع إخوانه المسلمين .

ومن توجيهات السلف في ذلك ما يلي :

□ ما أوصى به معاذ بن جبل ﷺ تلاميذه بقوله : « وإياكم وزيغة الحكيم فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عن ما جاء به فإن على الحق نوراً .

قالوا : وكيف زيغة الحكيم ؟ قال : هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذا ؟ فاحذروا زيغته ولا يصدنكم عنه فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق .

وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة »[1].

□ وقال عمرو بن ميمون الأودي : « صحبت معاذاً باليمن فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت من بعده أفقه الناس: عبد الله بن مسعود فسمعته يقول : عليكم بالجماعة فإن يد الله مع

---

[1] أعلام الموقعين ١/١٠٥ .

الجماعة ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول : سيولى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة وصلوا معهم فإنها لكم نافلة ، قال : قلت يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون ؟ قال وما ذاك ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول لي : صل الصلاة وحدك وهي الفريضة ، وصل مع الجماعة وهي نافلة ، قال : يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية ؛ أتدري ما الجماعة ؟ قلت : لا ، قال : إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وفي لفظ آخر فضرب على فخذي وقال : ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى »[1].

□ وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عنه قال : كان مالك وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز ؛ فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما وإذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم ، فتعرَّض له ابن دينار يوماً فقال له : يا أبا بكر لم تستحل مني ما لا يحل لك ؟ فقال له : يا ابن أخي وما ذاك ؟ قال : يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما وأسألك

---

[1] أعلام الموقعين ٣/٣٩٧ .

أنا وذوبي فلا تجيبنا ، فقال : أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك ؟ قال : نعم قال : إني قد كبرت سني ودق عظمي ، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني ، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان إذا سمعا مني حقاً قبلاه ، وإن سمعا مني خطأ تركاه وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه .

قال ابن حارث : « هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح ، لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن »[1] .

□ ما استفاض من تشنيع الأئمة على من يقلدهم التقليد الأعمى ، ومن يتعصب لهم ويترك الدليل الصحيح لقولهم ، ومقولتهم في ذلك مشهورة ومعروفة ويجمعها قولهم : (**إذا صح الحديث فهو مذهبي**) أو القول الآخر (**إذا خالف الحديث قولي ، فاضربوا بقولي عرض الحائط**) .

• ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من تفصيل القول في الأحزاب والتجمعات وتحذيره من التعصب المذموم حيث يقول : « وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزباً - فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة ولا

---

[1] أعلام الموقعين ١٩٨/٢ .

نقصان فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل : التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم ، سواء كان على الحق أو الباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن الفرقة والاختلاف وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان »[1].أ.هـ.

فظهر من كلام شيخ الإسلام أن التجمع والتعاون على الحق والدعوة إليه هو من التواصي بالحق ، مالم يكن هناك تعصب للداخلين في هذا الحزب بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل سواء كان على الحق أو الباطل ؛ فإنه حينئذ لا يكون من التواصي بالحق بل من التعصب الممقوت الذي يتنافى مع التواصي بالحق .

ومن باب التواصي بالحق أنصح نفسي وإخواني الدعاة والجماعات الإسلامية اليوم ؛ بالحذر من الحزبية المقيتة والتعصب المذموم للنفس أو الشيخ أو الطائفة ، وأن يتقوا الله جميعاً في أنفسهم ودعوتهم وفي إخوانهم الذين يربونهم تربية خاطئة تقوم على التعصب للجماعة أو

---

[1] مجموع الفتاوى ٩٢/١١ .

على الثقة المطلقة برجالاتها ؛ ثقة قد تصل بشكل عملي إلى دعوى عصمتهم ؛ الأمر الذي قد يؤدي إلى رفض الحق وعدم قبول الدليل الشرعي ، أو إلى الطعن في كثير من الدعاة الصادقين ، لا لشيء إلا لأنهم ليسوا من أفراد الجماعة ، وفي هذا تعصب للهوى لا يختلف عن التعصب للقبيلة أو القوم أو الأرض ، وإن التواصي بالحق يقتضي رفض كل هذه المواقف المذمومة .

• **ومن صور التواصي بالحق** : المناصحة بين المسلمين ـ وخاصة بين أهل العلم والدعوة والصلاح ـ وذلك بأن يكون كل واحد مرآه لأخيه يبين له عيوبه ويناصحه على انفراد شفقة ورحمة ومحبة ، ويفتح كل واحد صدره لأخيه ويشكره على مناصحته وتوجيهه ، وإن مما يؤسف له أن هذه المناصحة قليلة اليوم ؛ حيث يرى أحدنا على أخيه ما يشينه في سلوكه أو عبادته ، فلا ينصحه ، بل يتركه على خطئه بحجة أنه أعلم أو خوف غضبه أو أنه لن يقبل النصح ، وهذا كله من مداخل الشيطان ، والعجيب في الأمر أن نجد بعض من يترك مناصحة أخيه مباشرة بهذه الحجج الواهية قد ذهب إلى طرف ثالث وتكلم عنده في عرض أخيه وذكر مثالبه ، فترك بذلك الطريق الشرعي للمناصحة والتواصي بالحق واعتاض عنه بالطريق المحرم من الغيبة والسخرية

والنميمة ، ولقد كان سلفنا الصالح يتناصحون بينهم بالكلام المباشر وبالمكاتبات ليس فقط في ما يرونه على بعضهم البعض من المخالفات الشرعية ، وإنما كانوا يتناصحون أيضاً في التحذير من التوسع في المباحات ، وأسوق فيما يلي صورة مضيئة من المناصحة بين عالمين من علماء السلف علها أن تكون دافعاً لنا إلى المناصحة الصادقة التي باعثها الحب والشفقة والرحمة :

كتب يحيى بن يزيد النوفلي إلى الإمام مالك يعاتبه على التوسع في بعض المباحات فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطيء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم وقد ضُربت إليك المطايا ، وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماماً ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع ، كتبت إليك بالنصيحة في كتاب ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام » .

فكتب إليه مالك : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد : سلام

عليك ، أما بعد : فقد وصل إليَّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب متعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً ، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطيء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ؛ فقد قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » .

قال الإمام الغزالي معلقاً على الرسالتين : « فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعاً »[1].أ.هـ.

• **ومن صور التواصي بالحق** : قيام أهل العلم بتعليم الناس دينهم الحق وتحذيرهم مما يضاده من الباطل والشبهات ، والتصدي لكل ما يحرف الناس عن الحق أو يلبسه عليهم من الشبهات والشهوات ، وقد تكون هذه الردود مشافهة مع الناس أو عن طريق الكتابة ؛ كما كان ذلك شأن سلف الأمة الذين بينوا للناس الحق وردوا على شبهات

---

[1] إحياء علوم الدين ١/١١٤ .

المبطلين وتلبيساتهم المضلة ، ومن أخطر الفتن التي تصد الناس وتحرفهم عن الحق والتي يجب التصدي لها والرد على أهلها وكشف ضلالها للناس :

١- **فتنة الشبهات** : والتصدي لها يكون بنشر العلم الصحيح وتعليمه للناس وعدم كتمه عنهم ؛ إذ إن الباطل وشبهاته لا تنتشر إلا إذا فقد العلم أو ضعف بين الناس ، ومن أخطر أنواع الشبهات : لبس الحق بالباطل ، وإظهار الباطل في صورة الحق بجامع شبهة وشهوة ، ولقد نهى الله عز وجل عن كتم الحق أو لبسه بالباطل في كتابه العزيز فقال : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢] .

وما أكثر صور اللبس والتلبيس في عصرنا الحاضر ، وقد ذكرت بعضاً من هذه الصور في رسالة (ولا تلبسوا الحق بالباطل) مما يغني عن ذكرها هنا مرة ثانية .

والحاصل أن على أهل العلم والدعوة أن لا يسلموا الناس لأهل الباطل يشبهوا عليهم الحق ويلبسوا عليهم دينهم بما يثيرونه من الشبهات والضلالات ؛ بل عليهم بما آتاهم الله من العلم أن يتصدوا لشبهات المبطلين ويفندوها ويبينوا الحق للناس جلياً واضحاً .

ومما يلحق بالشبهات : لَيُّ النصوص وتحريفها ؛ وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « **اللَّيُّ : مثال الفتل وهو التحريف وهو نوعان : ليٌّ في اللفظ وليٌّ في المعنى** .

فاللي في اللفظ : أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ؛ إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها ، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره فهذا أحد نوعي اللي .

والنوع الثاني : لي المعنى ، وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم)[1].أ.هـ.

والتصدي لذلك يكون برد هذه التأويلات الباطلة ، وبيان فهم السلف الصالح لها والذي أخذوه عن رسول الله ﷺ .

٢- **فتنة الشهوات** : وهذه الفتنة لا تقل عن فتنة الشبهات خطراً إن لم تزد عليها ؛ وذلك أن هذه الفتنة لم تأت من عدم معرفة الحق أو ليه بالباطل ، بل إن الحق قد اتضح وبان لكن الشهوة والهوى تجعل صاحبها يعرض عن الحق ويتركه مع معرفته بذلك ، ومن التواصي بالحق التصدي لهذه الفتنة بتذكير الناس بعظمة الحق وشرف من يتبعه

---

[1] زاد المهاجر إلى ربه ص٣٥ .

والثواب العظيم له في الدنيا والآخرة ، وأن ما يعترضه من الشهوات والأهواء إن هي إلا أعراض زائلة سرعان ما تذهب وتبقى غصتها وعقوباتها يوم القيامة كما أن من التصدي لفتنة الشهوات ذكر عقوبات كتم الحق أو الإعراض عنه بعد بيانه لهوى أو شهوة ؛ لأن في ذلك أكبر واعظ لمن اتبع هواه في الإعراض عن الحق وركوب الباطل ومن أخطر هذه العقوبات المترتبة على ترك الحق : انتكاسة القلب وحرفه عن الهدى والعياذ بالله تعالى ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : «حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء : أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك ؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قلب هواك قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك »[1] .أ.هـ.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم عقوبة من ترك الحق بعد علمه به متبعاً في ذلك هواه ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ

---

[1] بدائع الفوائد ٣/٦٩٩ .

ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦] .

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله : « قال مجاهد : وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به ، وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى خير ؛ كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث ، وقال الحسن : هو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع ، وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك ، وقال عطاء : ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه، وقال أبو محمد بن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته وقال : إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث ونظيره قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٣] .

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى :

فمنها : قوله : ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته؛

فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه ثم قال: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم ، ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها : قوله سبحانه : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ ﴾ [الشعراء:٦٠] وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان ، لا ينال منه شيئاً إلا غرة وخطفة ، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم ؛ الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء

ومنها : أنه سبحانه قال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم فإن هذا كان من العلماء ، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله **فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به**»[1] .أ.هـ.

إذاً من التواصي بالحق التواصي بلزومه والتحذيرمن الإعراض عنه وذلك بتذكر القوبات العظيمة المترتبة على ذلك .

---

[1] أعلام الموقعين ١/١٦٧ .

الأصل الرابع : التواصي بالصبر

لما كان الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق كل ذلك لا يقوم ولا يستقيم إلا بالصبر ؛ جاء التأكيد على صفة التواصي بالصبر وأنها من صفات الناجين من الخسران ، ولم يكن من صفاتهم أنهم صابرون فحسب ؛ بل زادوا على ذلك بأن كانوا يتواصون بالصبر ويحض بعضهم بعضاً عليه ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ معنى الاجتماع والتناصح والترابط ، سبق ذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، كما أن فيه الدلالة على أن القيام بتكاليف الإيمان والعمل الصالح والثبات على الحق أمر شاق محتاج إلى الصبر والمصابرة والتواصي على لزومه وحث المؤمنين بعضهم بعضاً عليه .

وأصل الصبر : الحبس والكف ، وأما حقيقته فهو : ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى[1]، والمراد بالتواصي بالصبر هنا التواصي بطاعة الله عز وجل ، ويدخل في ذلك ترك معاصيه والصبر على بلائه ، وترك الجزع والتسخط ؛ يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى:« وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ يقول: وأوصى

---

[1] عدة الصابرين ص١٠ .

بعضهم بعضاً بالصبر على العمل بطاعة الله »[١].

وقال في فتح القدير : « ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أي بالصبر عن معاصي الله سبحانه ، والصبر على فرائضه ، وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه »[٢].

ولأهمية الصبر والتواصي به ، وارتباطه الوثيق بالإيمان والعمل الصالح وحاجة التواصي بالحق إليه ، ولكونه أصلاً عظيماً من أصول النجاة لا تتحقق إلا به ؛ رأيت التوسع في بعض المسائل المتعلقة به والتي لا بد منها في الحديث عن الصبر والتواصي به ، ومن هذه المسائل ما يلي :

المسألة الأولى :

التواصي بالصبر هو في الحقيقة من التواصي بالحق وهو من الأعمال الصالحة ؛ وإنما أفرد ذكره هنا لأهميته والتأكيد عليه ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهذا كثير في كتاب الله عز وجل وفي اللغة ؛ يقول الشوكاني رحمه الله تعالى : « وأيضاً التواصي بالصبر

---

[١] تفسير الطبري (سورة العصر) .

[٢] فتح القدير (سورة العصر) .

مما يندرج تحت التواصي بالحق ؛ فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها وارتفاع طبقته عنها »[١].أ.هـ.

ويقول ابن عاشور في تفسيره : « والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام أيضاً ، وإن كان خصوصه خصوصاً من وجه لأن الصبر تحمل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق »[٢].أ.هـ.

المسألة الثانية :

التواصي بالصبر يعني التواصي على نوعين من الصبر :

١- الصبر على المقدور كالمصائب .

٢- الصبر على المشروع بفعل الأوامر وترك النواهي .

ويفصل القول في ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول : « والصبر نوعان : نوع على المقدور كالمصائب ، ونوع على المشروع وهذا النوع أيضاً نوعان : صبر على الأوامر وصبر على النواهي ؛ فذاك صبر على الإرادة والفعل ، وهذا صبر عن الإرادة والفعل .

---

[١] فتح القدير (سورة العصر) .

[٢] التحرير والتنوير ١٥/٥٣٣ .

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار ؛ قال النبي ﷺ في حق ابنته ((**مرها فلتصبر ولتحتسب**))[1] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [هود:١١] وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٢٠] ، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى ، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور ، وقال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾ [الروم:٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر ، فإنهم لعدم يقينهم عُدِم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا وما خفوا ولا استخفوا ، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره ، ومن قلَّ صبره خف واستخف ، فالموقن الصابر رزين ؛ لأنه ذو لُبٍ وعقل ، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف والله المستعان))[2].أ.هـ.

---

[1] طرف من حديث أخرجه البخاري (٧٣٧٧) ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد ﷺ .

[2] بدائع التفسير ٥/٣٣٠-٣٣١ .

وهذه المسألة تقودنا إلى المسألة التي تليها .

المسألة الثالثة :

إذا لم يكن مع التواصي بالصبر تواصياً بالحق فإن الصبر بمفرده لا ينفع ، وهذا هو سر الارتباط الوثيق بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ حيث إن التواصي بالصبر لا يجدي إذا لم يكن على الحق والتقوى والعمل الصالح ؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيء المحظور ، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال ، والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر عن البطر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر ، ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به وهو اليقين »[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر : « قال إبراهيم الحربي : أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولا بد من الصبر في جميع الأمور قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣] فلا بد من التواصي بالحق والصبر ؛ إذ إن أهل الفساد والباطل لا

---

[1] مجموع الفتاوى ٢٨/١٥٣ .

يقوم باطلهم إلا بالصبر عليه أيضاً ، لكن المؤمنين يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون بالصبر على باطلهم كما قال قائلهم : ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ [ص:٦] فالتواصي بالحق بدون الصبر كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أوذي أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف فإن أصاب أحدهم خيرٌ اطمئن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة .

والتواصي بالصبر بدون الحق كقول الذين قالوا: ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ ﴾ كلاهما موجب للخسران ، وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعلموا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهو موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع »[1].أ.هـ.

المسألة الرابعة :

وكما قرن الله سبحانه بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر فقد **قرن أيضاً بين التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة** كما في قوله تعالى :

---

[1] قاعدة في المحبة ٣/٢٠٨ .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد:١٧] والتواصي بالمرحمة هو من التواصي بالحق ، ويبين شيخ الإسلام رحمه الله تعالى سر اقتران الصبر بالرحمة وأقسام الناس في ذلك فيقول : ((وقرن بين ((الرحمة والصبر)) في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ، فإن القسمة أيضاً رباعية ، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين - مثل كثير من النساء ومن يشبههن - ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع ، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي : ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف ، فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ؛ فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى ، كما قال النبي ﷺ : ((**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**))[1] وقال: ((**من لا يرحم لا يُرحم**))[2] وقال: ((**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**))[3].

---

(١) طرف من حديث أسامة بن زيد ﷺ والذي فيه أيضاً ((مرها فلتصبر ولتحتسب)) وقد تقدم تخريجه انظر ص ٢١١ .

(٢) البخاري ك . الأدب باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به (٥٩٩٧) ، ومسلم ك. الفضائل باب في رحمة النبي ﷺ بالصبيان (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٠١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٧٤) وأبو داود (٤٩١٢) =

وقال « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** »[١] والله أعلم »[٢].

المسألة الخامسة :

على أي شيء يكون الصبر؟ :

الصبر المشروع : يكون على فعل الواجب والمستحب وترك المحرم والمكروه ، وما سوى ذلك من الصبر فقد يكون محرماً أو مكروهاً أو مباحاً كما يفصل ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله : (وهو - أي الصبر - ينقسم بهذا الاعتبار - أي باعتبار تعلقه الأحكام الخمسة به - إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح .

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع : أحدها : الصبر عن المحرمات : والثاني ، الصبر على أداء الواجبات ، والثالث : الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها .

- والترمذي (١٩٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

[١] أخرجه أحمد (٢/١٦٠) وأبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

[٢] مجموع الفتاوى ١٠/٦٧٧ .

وأما **الصبر المندوب** : فهو الصبر على المكروهات ، والصبر على

وأما الصبر المندوب : فهو الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر عن مقابلة الجاني بمثل فعله .

وأما المحظور فأنواع : أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت ، قال طاووس وبعده الإمام أحمد : « من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار » .

فإن قيل : فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال ؟ قيل : اختلف في حكمه هل هو حرام أو مباح على قولين هما لأصحاب أحمد وظاهر نصهما أن الصبر عن المسألة جائز ، فإنه قيل له إذا خاف إن لم يسأل أن يموت ، فقال : لا يموت ؛ يأتيه الله برزقه ، ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيض الله له رزقاً ، فأحمد منع من وقوع المسألة ، وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي : يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصياً لأن المسألة تضمن نجاته من التلف .

ومن الصبر المحظور : صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله ، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب كما دلت عليه

النصوص الكثيرة ، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين ، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمه بالفاحشة .

وأما الصبر المكروه : فله أمثله : **أحدها** أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه ، **الثاني** صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به ، **الثالث** صبره على المكروه **الرابع** صبره عن فعل المستحب .

وأما الصبر المباح : فهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين خُيِّرَ بين فعله وتركه والصبر عليه .

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب ، وعن الواجب حرام ، والصبر عن الحرام واجبٌ وعليه حرام ، والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه ، والصبر عن المباح مباح ، والله أعلم)[1] .أ.هـ.

المسألة السادسة :

الصبر المرضي لله عز وجل، لا يتحقق إلا بثلاثة شروط ؛ وذلك ليحصل الانتفاع به بالثبات في الدنيا والثواب في الآخرة .

---

[1] عدة الصابرين ص٢٢ ،٢٣ (باختصار) .

وهذه الشروط هي :

الأول : أن يكون ابتغاء وجه الله عز وجل واحتساب الأجر منه سبحانه وليس لأجل عرض من أعراض الدنيا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ [المدثر:٧] .

الثاني : أن يكون على أمر يحبه الله ويرضاه وهو ما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

الثالث : الاستعانة بالله وحده على الصبر ؛ لأنه سبحانه هو وحده المصبر والمثبت ، وهذا يقتضي التبرؤ من كل حول وقوة سوى الله عز وجل .

وهذه الأمور الثلاثة هي شروط الصبر النافع الذي يثاب صاحبه وبدونها يضعف ويخذل ؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهو ـ أي الصبر ـ على ثلاثة أنواع : صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله :

فالأول : أول الاستعانة به ، ورؤيته أنه هو الْمُصَبِّرُ ، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تَصْبِرْ .

والثاني : الصبر لله ، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى

الخلق ، وغير ذلك من الأعراض .

الثالث : الصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية ، صابراً نفسه معه ، سائراً بسيرها ، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها ، وينزل معها أين استقلت مضاربها فهذا معنى كونه صابراً مع الله ، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه ، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين)[1] .أ.هـ.

وفي كتاب الله عز وجل ما يؤيد هذه الشروط اللازمة للانتفاع بالصبر وذلك في موقف سحرة فرعون عندما هددهم بالقتل حيث قالوا : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦] فذكرهم الانقلاب إلى الله عز وجل فيه الإخلاص واليقين بوعده وابتغاء وجهه سبحانه بصبرهم ، وذكرهم لآيات الله التي رأوها فيها اطمئنانهم إلى أن الحق مع موسى عليه السلام وهو الحق الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه ، ودعاؤهم آخر الآية فيه الاستعانة بالله عز وجل وسؤاله التصبير والثبات والموت على الإسلام وفي ذلك التبرؤ من

---

[1] مدارج السالكين ٢/١٥٧ .

الحول والقوة .

المسألة السابعة :

الصبر كغيره من الأخلاق يكتنفه خلقان ذميمان والممدوح منه وسط بينهما والتواصي به يعني التواصي على الاستقامة بين الطرفين المذمومين للصبر : طرف التفريط في الصبر المؤدي إلى التهور والعجلة في الأمور أو الهلع والجزع والتسخط ، وطرف الإفراط المؤدي إلى القسوة وغلظ الكبد وتحجر الطبع ، وبينهما يقع الصابر المستقيم الذي لم تدفعه الشدائد والابتلاءات إلى الضعف والخور والجزع ، وفي المقابل لم تدفعه بضغوطها وشدتها إلى العجلة والتهور والقسوة المخالفة لقواعد الشريعة ومقاصدها ؛ وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (وكل خُلقٍ محمود مكتنف بِخُلُقَين ذميمين وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخُلقين الذميمين ولا بد ، فإذا انحرفت عن خلق « الصبر المحمود » انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط ، وإما إلى غلظة كبد ، وقسوة قلب وتحجر طبع)[1].أ.هـ.

ويقول أيضاً : (قلت : والنفس فيها قوتان ، قوة الإقدام ، وقوة

---

[1] مدارج السالكين ٢/٣١٠ (باختصار) .

الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره)[١] .أ.هـ.

المسألة الثامنة :

الصبر الذي ينبغي التواصي به هو صبر الكرَّام لا صبر اللئـــام ؛ والفرق بينهما : (أن الكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر ، ولعلمه بأنه إن لم يصبر لم يَرُدّ الجزع عليه فائتاً ولم ينزع عنه مكروهاً ، وأن المقدور لا حيلة في دفعه ، وما لم يُقَدَّر لا حيلة في تحصيله ؛ وأما اللئيم : فإنه يصبر اضطراراً حيث رأى أن الجزع لم ينفعه فصبر صبر الموثق للضرب ؛ والكريم : يصبر في طاعة الرحمن ؛ واللئيم : يصبر في طاعة الشيطان ؛ فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم)[٢] .أ.هـ.

المسألة التاسعة :

من التواصي بالصبر التواصي بالأسباب التي تعين عليه وتقويه في قلب العبد ، ومن أهمها ما أشار إليه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى

---

[١] عدة الصابرين ص١٠ .

[٢] عدة الصابرين ص٣٨ (باختصار وتصرف يسير) .

بقوله : (فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن ، وهو يتركب من مفردين : العلم والعمل ؛ فمنهما تركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان ، فلا بد من جزء علمي وجزء عملي ، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية ، فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال ، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص ، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية ، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء ، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة ، وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس ، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر)[1].أ.هـ.

ثم ذكر بعد ذلك الأمور التي تقوي باعث الدين والعقل على باعث الهوى والنفس ومن أهمها :

(**أولاً : إجلال الله تبارك وتعالى** ، أن يُعصى وهو يرى ويسمع ، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة .

---

[1] عدة الصابرين ص٣٩ .

الثاني : مشهد محبته سبحانه ، بترك معصيته محبة له ؛ فإن المحب لمن يحب مطيع ، وأفضل الترك ترك المحبين ، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين ، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد .

الثالث : مشهد النعمة والإحسان ؛ فإن الكريم لا يُقَابِلُ بالإساءة من أحسن إليه ، وإنما يفعل هذا لئام الناس ، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه ، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك فأقبح بها من مقابلة .

الرابع : مشهد الغضب والانتقام ؛ فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب ، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء ، فضلاً عن هذا العبد الضعيف .

الخامس : مشهد العوض ، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها وليوازنه بين العوض والمعوض فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه .

السادس : مشهد المغافصة والمعاجلة ؛ وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة ، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها ، لكن ما يعرفها إلا

من جربها ، وفي بعض الكتب القديمة : « يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ، ولا يتم له سرورُ يومٍ الحذرَ الحذرَ » .

السابع : التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها ، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب ؛ فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له ، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم ، بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً .

الثامن : تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمَّةِ الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام ، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف : « **إن لله في أيام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم** » ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه .

التاسع : أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود ، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه ، وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح ، **فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً ، ويستعين**

على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه وقد قال النبيﷺ : ((**من سمع بالدجال فلينأ عنه**))[١] ، فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه ، وها هنا لطيفة ، لا يخلص إليها إلا حاذق وهي : أن يظهر له الشيطان في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله ، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة ، والله أعلم))[٢].أ.هـ.

ومما يعين على الصبر ويقويه التواصي بتدبر كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمدﷺ وما ورد فيهما من الحث على الصبر وفضله وما أعده الله عز وجل للصابرين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر الصبر في القرآن في تسعين موضعاً ليس المقام مقام التفصيل فيها ولكن أكتفي منها ببعضها ومن ذلك :

● قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

---

[١] أخرجه أحمد (٤/٤٣١، ٤٤١) ، وأبو داود (٤٣١٩) والحاكم (٤/٥٣١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما بلفظ ((**من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فلا يزال به لما معه من الشُّبه حتى يتبعه**)) وصححه الحاكم .

[٢] عدة الصابرين (باختصار) ص٤٢-٤٥ .

وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

• وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠] .

• وقوله تعالى : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤] .

• وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وأما الأحاديث فكثيرة أذكر منها :

• عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : قلت يارسول الله أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ قال : « **الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة** »[(١)] .

• عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة ؛ يريد عينيه** »[(٢)] .

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) وقال حديث صحيح ، ومسلم (١٠٥٣) .

(٢) البخاري ك . المرض باب فضل من ذهب بصره (٥٦٥٣) .

• وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « **وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر** »[١].

• وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ - يحكي نبياً من الأنبياء - ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : « **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** »[٢].

• وعن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء ؛ أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله تعالى لي ، قال : « **إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك** » **فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها** »[٣].

• وصية الرسول ﷺ لآل ياسر بالصبر وهم يعذبون بقوله : « **صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة** »[٤].

---

(١) البخاري ك الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣) .

(٢) البخاري ك الأنبياء ، باب ما ذكر عن نبي اسرائيل (٣٤٧٧) ، مسلم (١٧٩٢) .

(٣) البخاري ك المرض ، باب فضل من يصرع (٥٦٥٢) ، مسلم (٢٥٧٦) .

(٤) ذكره ابن إسحاق كما في الحاكم (٣٨٣/٣) ، والحلية (١٤٠/١) ، والبداية والنهاية (٥٩/٣) وانظر تحقيق الأرناؤط على زاد المعاد (٢٢/٣) .

• وعن أبي عبد الله خباب بن الأرت ﷺ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط نصفين ، بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ؛ ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** »[1].

ومما يعين على الصبر : التواصي بقراءة أقوال السلف وسيرتهم وأخبارهم في الصبر والمصابرة . وأقوالهم رحمهم الله تعالى وسيرتهم في الصبر والثبات وقوة التحمل وهي كثيرة جداً أذكر منها ما يلي :

• قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبي السفر قال : مرض أبو بكر ﷺ فعادوه فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟

فقال : قد رآني الطبيب ، قالوا : وما قال لك ؟

قال : إني فعال لما أريد .

• وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن مجاهد

---

(١) البخاري ك. الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٩٤٣) .

قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ : وجدنا خير عيشنا بالصبر ، وقال أيضاً : أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً .

• وقال علي بن أبي طالب ﷺ : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له ، وقال : الصبر مطية لا تكبو .

• وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده .

• وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه .

• وقال ميمون بن مهران : ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا بالصبر .

• وقال سليمان بن القاسم : كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، قال : كالماء المنهمر .

• وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم

أبال أيهما ركبت .

• وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال : سحابة صيف ثم تنقشع .

• وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً ، وقيل للأحنف بن قيس : ما الحلم ؟ قال : أن تصبر على ما تكره قليلاً .

• وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد ، وكان من أحسن الناس وجهاً ، فدخل على الوليد في ثياب موشاة وله غديرتان وهو يضرب بيده ، فقال الوليد : هكذا تكون فتيان قريش! فعانه[1] فخرج من عنده متوسناً ، فوقع في اصطبل الدواب ، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات ، ثم إن الآكلة وقعت في رجل عروة فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا : إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك ، فعزم على قطعها ، فنشروها بالمنشار ، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشى عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر ، فأخذها وجعل يقلبها في يده ثم

---

[1] أي أصابه بالعين .

قال : أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله ، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين ، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه ، فجعل يقول : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف :٦٢]، ولم يزد عليه ، ثم قال : لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامتٍ بنكبة أو حاسدٍ لنعمة ، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك ، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة : لا أبا لشانيك ، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها ، فكشف له عن ركبته ، فقال له عيسى : أما والله ما كنا نعدك للصراع ، قد أبقى الله أكثرك ، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك ، فقال له : يا عيسى ، ما عزاني أحد مثل ما عزيتني ، ولما أرادوا قطع رجله قالوا له : لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع ، فقال : إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره وسئل ابنه هشام : كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ ؟ قال : كان يمسح عليها .

• وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف :٨٤] قال : كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً ، وقال يحيى بن المختار عن الحسن : الكظيم الصبور ، وقال همام

عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي كميد ، أي كمد الحزن .

• وقال الحسن : ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم .

• وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر ، فقوله : اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، كأنه تفسير لقوله : إنا لله ، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد ، وقوله : راجياً به ما عند الله ، كأنه تفسير لقوله : وإنا إليه راجعون ، أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة ، وقوله : وقد يجزع الرجل وهو يتجلد ، أي ليس الصبر بالتجلد ، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى ، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر))[1] .

• وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي : (قال أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد ، وصلبوه على السُّنة ، سمعت الدارقطني يذكره ،

---

[1] كل النقولات السابقة من كتاب ((عدة الصابرين)) ص٧٠-٧٢ (باختصار) .

ويبكي ، ويقول : كان يقول ، وهو يُسلخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء:٥٨] .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان ينزل الأكواخ ، فقاله له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سهماً ، وفينا تسعة ، قال : ما قلت هذا ، بل قلت : إذا كان معه عشرة أسهم ، وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضاً فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية ، فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهودياً فسلخه .

قال معمر بن أحمد الصوفي : أخبرني الثقة أن أبا بكر ابن النابلسي **سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه** »[1].

• وعن الشعبي ، قال شريح : « إني لأصاب بالمصيبة ، فأحمد الله عليها أربع مرات ، أحمد إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب ، وأحمد إذ لم

---

[1] سير أعلام النبلاء ١٤٨/١٦، ١٤٩ .

يجعلها في ديني »[١].

• وقال غسان بن المفضل الغلابي : « حدثني بعض أصحابنا قال : جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً بذلك ، فقال : أيسرك ببصرك مئة ألف ؟ قال : لا . قال : فبسمعك ؟ قال : لا . قال فبلسانك ؟ قال : لا . قال : فبعقلك ؟ قال: لا . في خلال ، وذكَرَّه نعم الله عليه ، ثم قال يونس : أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة »[٢].

• وقال الحسن بن صالح : « لما احتضر علي بن صالح رفع بصره وقال : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] ثم خرجت نفسه ، قال : فنظرنا إلى جبينه فإذا ثقب قد وصل إلى جوفه وما علم به أحد من أهله »[٣] .

• عن الربيع بن أبي صالح قال : « دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج ، فبكى رجل ، فقال سعيد : ما يبكيك ؟ قال :

---

[١] سير أعلام النبلاء ١٠٥/٤ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٦ .

[٣] حلية الأولياء ٣٢٩/٧ .

لما أصابك ، قال : فلا تبك ، كان في علم الله أن يكون هذا ثم تلا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد:٢٢]))[1].

المسألة العاشرة :

العبد محتاج إلى الصبر في جميع أحواله ولا يستغني عنه إلى الممات؛ لأنه إما يكون في أمر يجب عليه امتثاله أو نهي يجب عليه اجتنابه ،أو مصيبة تجري عليه ، أو نعمة يجب شكر المنعم عليها وعدم البطر والكبر والاغترار بها ، ولما كان العبد لا يستغني عن الصبر في جميع أحواله جاء الأمر به والتواصي به بعد التواصي بالحق ، لأنه لا قيام بالحق إلا به ، ولأنه لا نجاة من الخسران في الدنيا والآخرة إلا به ، وإذا كان الناس بعامة لا يستغنون عن الصبر فإن الدعاة منهم والمجاهدين الذين هم أكثر عرضة للمصائب والمحن والابتلاءات أحوج من غيرهم إلى التواصي بالصبر على الحق الذي يحملونه ويدعون الناس إليه ؛ لأنه زادهم في طريق الدعوة والجهاد المليء بالعقبات والمشاق والتضحيات ، ويذكر سيد قطب رحمه الله تعالى بعض هذه العوائق والعقبات التي يجب على الدعاة والمجاهدين أن يوصي بعضهم بعضاً بالصبر عليها

---

[1] سير أعلام النبلاء (٣٣٧/٤) .

فيقول : « الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ؛ إنه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والإيذاء والابتلاء ، إنه الصبر على أشياء كثيرة ، الصبر على شهوات النفس ورغباتها وأطماعها ومطامحها وضعفها ونقصها وعجلتها وملالها من قريب ، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم ، والتوائهم واستعجالهم للثمار ، والصبر على تنفش الباطل ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء ، والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق ، والصبر على مرارة الجهاد ، لهذا كله وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ والحنق والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير ، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية ، والملل واليأس أحياناً والقنوط ، والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والغلبة والانتصار، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر ، وبدون خيلاء ، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله واستسلام لقدره ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع »[1] .أ.هـ.

---

[1] طريق الدعوة في ظلال القرآن ص١٩٨ .

ويتحدث في سورة العصر عن التواصي بالصبر وضرورته للدعاة فيقول : « والتواصي بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، ولا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم وبُعد النهاية ، والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المتجه وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار ، إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا يعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها وإلا فهو الخسران والضياع ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر: ١-٣] فالصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته ؛ درجة تماسك الجماعة المؤمنة وتواصيها على معاني الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضاً فلا

تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي »[1].أ.هـ.

ويقول في موطن آخر عند قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥] : « توجيه يقال لمحمد ﷺ وهو الذي احتمل وعانى من قومه ما عانى ، وهو الذي نشأ يتيماً وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحداً بعد واحد ، الأب ، والأم ، والجد ، والعم ، والزوج الوفية الحنون ، وخلص لله ولدعوته مجرداً من كل شاغل ، كما هو مجرد من كل سند وظهير من الخلق ، وهو الذي لقي من أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين ، وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرُدّ في كل مرة بلا نصرة ، وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة ، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ في تجردها

---

[1] طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢٠٨.

وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفائها وشفافيتها ، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين »[١] .أ.هـ.

المسالة الحادية عشرة :

ومن التواصي بالصبر تسلية المصابين ، وتعزية من مات له ميت، وتخفيف مصابه ، وتذكيره بآيات الصبر واحتساب الأجر من الله عز وجل ؛ كل ذلك داخل في التواصي بالصبر ، وقد جاءت السنة بالوصية بالمرضى وزيارتهم والدعاء لهم وتذكيرهم بفضل الصبر وما أعد الله للصابرين كما جاءت بالحث على تعزية المصابين في أهليهم وتوصيتهم بالصبر ورجاء الثواب عند الله عز وجل ، كل ذلك يدخل في التواصي بالصبر المذكور في السورة .

وفيما يلي ذكر بعض هذه الآثار التي تحث على زيارة المرض وتعزية أهل المصائب :

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة**

---

[١] في ظلال القرآن ٦/٣٢٧٦ .

الدعوة ، وتشميت العاطس »[١].

٢- عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : « **اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً** »[٢].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده وكان إذا دخل على من يعوده قال : « **لا بأس طهور إن شاء الله** »[٣].

٤- عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلِفْ لي خيراً منها . إلا أجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها** » **قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه : رسول الله ﷺ** »[٤].

٥- عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : أرسلت إحدى بنات

---

[١] البخاري ك . في الجنائز ، باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٤٠) ، مسلم في السلام (٢١٦٢) .

[٢] البخاري ك . الطب ، باب رقية النبي ﷺ (٥٧٤٣)، مسلم في السلام (٢١٩١) .

[٣] البخاري ك . المرض ، باب عيادة الأعراب (٥٦٥٦).

[٤] مسلم ك . الجنائز (٩١٨) .

النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبره أن صبياً لها ـ أو ابناً ـ في الموت فقال الرسول : « **ارجع إليها فأخبرها أن لله تعالى ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب** »[١].

٦- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة** »[٢] .

المسألة الثانية عشرة :

التواصي بالصبر لا يكون لأهل المصائب فقط ، وإنما أهل النعم والغنى وأهل الخير هم أحوج من غيرهم إلى الوصية بالصبر وشكر النعم حتى لا يبطروا ويطغوا ؛ فالله عز وجل يقول : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥] وكثير من الناس يصبر على الشدائد والمصائب وفتنة الضراء ، ولكن القليل منهم من يصبر على فتنة السراء والخير والرخاء والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن المصاب بأمر يكرهه يعلم ويحسن بأنه مصاب ، وكذلك الناس من حوله يحسون بمصابه فيواسونه ويوصونه بالصبر ، وهو كذلك يستنفر

---

[١] البخاري .ك الجنائز ، مسلم (٩٢٣) .

[٢] البخاري .ك الرقاق ، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله (٦٤٢٤).

قواه الكامنة من الإيمان واللجوء إلى الله عز وجل والصبر وشجاعة القلب في مواجهة المصيبة ، أما أهل الرخاء والسراء فلا يشعرون بأنهم مبتلون ومفتنون ، والناس من حولهم لا يحسون كذلك ؛ فلذا تمضي فيهم الفتنة وهم في حالة من الاسترخاء وعدم الاستعداد لمقاومتها وبذلك يكثر المتساقطون في فتنة السراء ، لذا فالتواصي بالصبر ينبغي أن يكون معهم كما هو الحال في التواصي مع أهل المصائب ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده ، والآخر مخالفه .

وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما ؛ أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدها : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله .

الثاني : أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها ، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع .

الثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع : أن يصبر عن صرفها في الحرام ، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام ، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون ؛ قال بعض السلف : « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون » وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون:٩] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤] وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها »[1] .أ.هـ.

المسألة الثالثة عشرة :

من التواصي بالصبر التواصي بترك ما يضاده ، والتحذير مما يقدح فيه من التشكي واليأس من رحمة الله تعالى والجزع والتسخط وشق

---

[1] عدة الصابرين ص٤٦ .

الجيوب ولطم الخدود ، ويفصل القول في هذه القوادح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : « لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب عليه السلام إلى الله مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وأما إخباره المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرر لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه.

وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول **كيف تجدك** ؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله ، وأما الأنين فهل يقدح في الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد ؛ قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة ؛ لما روى عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه ، قال هؤلاء : وإن الأنين شكوى بلسان الحال فينافي

الصبر ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه : أخرج إلي كتاب عبد الله بن إدريس ، فأخرجت الكتاب ، فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم ، فأخرجت أحاديث ليث ، قال : اقرأ عليَّ أحاديث ليث ، قال : قلت لطلحة : إن طاووس كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات ، فما سمعت أبي أنَّ في مرضه ذلك إلى أن توفي ، والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر ، قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع فقال تعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ ، قال نعم حديث عائشة وارأساه وجعل يستحسنه ، وقال المروذي دخلت على أبي عبد الله وهو مريض فسألته فتغرغرت عيناه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة .

والتحقيق أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روي في أثر أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى ، وقال شقيق البلخي : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً .

والشكوى نوعان : شكوى بلسان المقال ، وشكوى بلسان الحال ولعلها أعظمها ، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه

وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير ؛ فهذا أمقت الخلق عند ربه قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا كهمس عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف ، قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال سبحان الله وبحمده في خلال الحديث ، قيل فما التحذيف ؟ قال : يصبح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنهم بشر .

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل ، ولهذا برئ النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق ؛ صلق : رفع صوته عند المصيبة ، وحلق رأسه وشق ثيابه ، ولا ينافيه البكاء والحزن ، قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٤]

قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً .

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان** »[1].

---

[1] أخرجه أحمد (١/٣٣٥) ، وعلي بن زيد قال الحافظ : ضعيف ، وفي بعض طرق الحديث زيادة أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس وفاطمة على شفير القبر وقد ذكرها =

وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من بث لم يصبر** »[١].

وقال خالد بن أبي عثمان : مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعاً فقال : إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة ، وقال بكر بن عبد الله المزني : كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيء والظن السيء ، وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال : القول السيء والظن السيء ... ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢١] وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع ، وفي الحديث : « **شر ما في العبد شح هالع ، وجبن خالع** »[٢].

= الذهبي في الميزان (٢/٢٢٥) في ترجمة علي بن زيد ثم قال : هذا حديث منكر فيه شهود فاطمة الدفن ولا يصح " وحمله الشيخ أحمد شاكر على ما قبل النهي عن زيارة النساء المقابر وصحح إسناد الحديث . انظر تعليقه على المسند (ح٣١٠٣) .

[١] أخرجه السيوطي في الدر المنثور .

[٢] أحمد (٢/٣٠٢، ٣٢٠) ، وأبو داود (٢٥١١) ك . الجهاد باب في الجرأة والجبن من =

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وأذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعاً ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا إفضال ، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان »[1].أ.هـ.

المسألة الرابعة عشرة :

ومن الأمور التي يجب التواصي بالصبر عليها **التواصي بالصبر عند الغضب** ؛ فكما أن التواصي يكون بالصبر على المصائب حتى لا تجزع النفوس وتضعف ، فكذلك ينبغي التواصي بالصبر عند الغضب حتى لا يحصل التهور والاندفاع الذي لا تحمد عقباه ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه عند الغضب إلا بالصبر والحلم وهذا هو الشديد على الحقيقة كما قال الرسول ﷺ : « **ليس الشديد بالصُّرَعَة ولكن الشديد**

= حديث أبي هريرة ﷺ وصححه أحمد شاكر في المسند .ط. المعارف (١٥/١٦٤) ، وصححه الألباني (٥٦٠) .

[1] عدة الصابرين ص٩٢-٩٥ (مختصراً) .

من يملك نفسه عند الغضب »[١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة كما قال الحسن رحمه الله تعالى : « **ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة** » وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم ، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم ، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب ، وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن ، ولهذا يحمرُّ الوجه عند الغضب لثوارن الدم عند استشعار القدرة ، ويصفرُ عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبيﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال : قال النبيﷺ : « **ما تعدون الرقوب فيكم ؟** » قالوا : الرقوب الذي لا يُولد له ، قال : « **ليس ذاك بالرقوب، ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً** » ، ثم قال : « **ما تعدون الصرعة فيكم ؟** » قلنا : الذي لا يصرعه الرجال ، فقال : « **ليس بذلك ، ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب** »[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ك . الأدب باب الحذر من الغضب (٦١١٤) ، ومسلم في البر من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة .

(٢) مسلم ك . البر والصلة ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٨) .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى في المصيبة : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] وقال تعالى في الغضب : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ ﴾ [فصلت:٣٥] .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [هود:٩-١١] »[1].أ.هـ.

---

[1] الاستقامة تحقيق " محمد رشاد سالم " ٢/٢٧٢-٢٧٤ .

وقفة أخيرة في السورة

بعد هذه الدراسة التفصيلية لهذه السورة الجليلة يبقى الكلام في مسألة مهمة برزت من خلال هذه السورة لم تأخذ حظها من البحث مع مسيس الحاجة إليها وتكمن أهميتها في علاقتها بالدعوة والدعاة والمنهج الصحيح الذي به يحصل التغيير والتمكين .

فلقد رسمت هذه السورة أصول النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وقد تم تفصيل ذلك كله فيما سبق من مباحث هذه الرسالة ، وكان التركيز في تلك المباحث على نجاة الفرد والمجتمعات من الخسران عندما تتصف بصفات النجاة المذكورة في السورة ، ولكن ما أثر هذه الصفات وجوداً وعدماً على نجاح الدعاة والمصلحين وفلاحهم في سعيهم لهداية الناس والتمكين لدين الله عز وجل في الأرض ؟

إن الأصول الأربعة المذكورة في هذه السورة للنجاة من الخسران وتحصيل الفلاح في الدنيا والآخرة لهي نفسها الأصول الكبرى التي لا بد منها لنجاح أي دعوة تسعى لإصلاح الأمة والتمكين لدينها في الأرض وبدونها تخسر الدعوة طريقها ولا تتحقق لها أهدافها ، وبيان ذلك أن يقال : إن التمكين والنصر لدين الله عز وجل يتطلب أن ينطلق أصحاب الدعوة من الثوابت والأصول والسنن الربانية التي بينها

الله سبحانه في كتابه وجعلها أصولاً للتغيير والنصر والتمكين وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧] وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾ [النور:٥٥] وقوله تعالى في سورة العصر : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ [العصر:٢-٣] .

هذه هي أصول التمكين والنصر كما وضحتها الآيات السابقة : الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وبدون هذه الأصول يخسر المصلحون دعوتهم ويتأخر نصر الله عز وجل عنهم .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لآية النور : « هذا من وعوده الصادقة ، التي شوهد تأويلها ومخبرها ؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفين في تدبيرها ، وأن يُمكن لهم

دينهم الذي ارتضى لهم ، وهو دين الإسلام ، الذي فاق الأديان كلها وارتضاه لهذه الأمة ، لفضلها وشرفها ونعمته عليها ، بأن يتمكنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ؛ في أنفسهم وفي غيرهم ؛ لكون غيرهم من أهل الأديان ، وسائر الكفار ، مغلوبين ذليلين ، وأنه يبدلهم أمناً من بعد خوفهم ، حيث كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه ، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار ، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً ، بالنسبة إلى غيرهم ، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة ، وبغوا لهم الغوائل .

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية ، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض ، والتمكين فيها ، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي ، والأمن التام ، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ولا يخافون أحداً إلا الله ، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق على غيرهم .

فمكنهم من البلاد والعباد ، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحصل الأمن التام ، والتمكين التام ، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة .

ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة ، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح

فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله ، وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ، ويُديلُهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم يامعشر المسلمين ، (فأولئك هم الفاسقون) الذين خرجوا عن طاعة الله ، وفسدوا ، فلم يصلحوا لصالح ، ولم يكن فيهم أهلية للخير ، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره ، وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته ، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك »[1].أ.هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، ذلك وعد الله ووعد الله حق ، ووعد الله واقع ، ولن يخلف الله وعده ، فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق

---

[1] تفسير السعدي ٣/٤١٣ .

النشاط الإنساني كله ، وتوجه النشاط الإنساني كله ؛ فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه ، وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً ، يتوجه بهذا كله إلى الله ، يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ والشرك مداخل وأنواع ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض ؛ أمانة الاستخلاف... ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الخارجون على شرط الله ،

ووعد الله ، وعهد الله ، لقد تحقق وعد الله مرة ، وظل متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ لا من الآلهة ولا من الشهوات ، ويؤمنون ـ من الإيمان ـ ويعملون صالحاً ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة ، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن ، لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة ، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة ، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف ـ كل ذلك بوسائله التي أرادها الله ، وبشروطه التي قررها الله ـ تحقق وعد الله الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعاً »[1] .أ.هـ.

وبالتأمل في آية النور وسورة العصر نجد بينهما تطابقاً في تحديد أصول التمكين والفوز والنصر على الأعداء ؛ فآية النور حددت الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له أصولاً للتمكين والاستخلاف في الأرض واستتباب الأمن ، وكذلك سورة العصر أيضاً حددت أصول الفوز والنجاة على مستوى الفرد والجماعات وأنها

---

[1] في ظلال القرآن ٤/٢٥٢٨-٢٥٣٠ (باختصار) .

الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وهذان الأصلان الأخيران وإن كانا لم يذكرا في سورة النور إلا أن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما من الأعمال الصالحة ؛ فإذا أطلق العمل الصالح كما في سورة النور دخل فيه التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإفرادهما بالذكر كما في سورة العصر يدل على أهميتهما والتنبيه على اشتراطهما في بقاء الإيمان والعمل الصالح في نفوس أهله ، وإبلاغه للناس كافة حتى يكون الدين كله لله تعالى .

ويمكن تلخيص أصول النصر والتمكين من خلال سورة العصر في التالي :

١- العلم بالحق .

٢- العمل به .

٣- الدعوة إليه والتواصي به .

٤- الصبر على تكاليفه والتواصي على ذلك .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١- الإيمان : (العلم بالحق) :

أي أن يتحقق في القائمين بأمر هذا الدين ، الإيمان الصحيح بالله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر على

النحو الذي تم تفصيله في أول البحث وذلك بالفهم الصحيح الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان ، كما يقتضي ذلك العلم بحقيقة الشرك والكفر والنواقض التي تنقض الإيمان واستبانة سبيل المجرمين ، ويمكن تسمية هذا الأصل بالبصيرة في الدين وصحة الفهم والمعتقد ، وعندما يحصل الخلل في الإيمان وصحة المعتقد .

فإن هذا بدوره يضعف الدعوة ويخسر الدعاة جهودهم ، ويتخلف نصر الله عز وجل أو يتأخر حسب قوة الخلل وضعفه .

٢- العمل الصالح : (العمل بالحق) :

وهذا هو الأصل الثاني وهو ثمرة الإيمان والبصيرة في الدين إذ لا معنى للإيمان بدون ثماره من الأعمال الصالحة ، وقد سبق تعريف العمل الصالح وأنه هو الذي يقوم على شروط ثلاثة بدونها لا يسمى العمل صالحاً وهي : المتابعة للرسول ﷺ وعدم الابتداع ، وإرادة وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، وصحة الإيمان والمعتقد ؛ وكلما كان القائمون على أمر الدعوة والجهاد على مستوى من الأعمال الصالحة الواجبة والمستحبة ، وتاركين للمحرمات بأنواعها مبتغين بذلك وجه الله عز وجل ومتبعين فيها الرسول ﷺ كلما كانوا أقرب لنصر الله عز وجل وتمكينه لهم .

٣- الدعوة إلى الحق والتواصي به :

وذلك ببذل الوسع في دعوة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح والتواصي به على ذلك ؛ لأن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على القوم المصلحين الذين أصلحوا أنفسهم وبذلوا الجهد في إصلاح غيرهم ؛ فمثل هؤلاء هم الذين يمكن لهم ويدفع الله العقوبة عن الناس بسببهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود:١١٧] ولم يقل : (صالحون) ، وهذا الإصلاح لا يتأتي إلا بالتواصي والتعاون بين القائمين على الدعوة ، وتنسيق الجهود ، وتوزيع المهمات بينهم ، وبذل الجهد في تربية أنفسهم والمدعوين على الفهم الصحيح والقصد الصحيح والعمل الصالح المحبوب لله عز وجل ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وتضافر بين العاملين في حقل الدعوة والإصلاح، بل يحتاج إلى تضحيات وسهر وتعب وجهود مضنية توضح للناس الحق وتحذرهم من الباطل وأهله وتقف في وجه الفساد والمفسدين ؛ وهذا يتطلب من الدعاة قوة باطنة مصدرها الإيمان والفهم الصحيح والإخلاص والقصد الصحيح وقوة ظاهرة تقوم على الأخذ بالأسباب المشروعة وبذل الوسع في توظيفها لصالح الدعوة وتبليغ الحق للناس وتربيتهم عليه حتى يصلب عود الدعوة ويعرفها الناس وتظهر آثارها فيهم ، وبعد ذلك يُنتظر نصر الله

عز وجل وفرجه ؛ وهذا لا يتأتى إلا بصدق التوكل عليه سبحانه والاستعانة به وحده والإيمان الجازم بأنه وحده سبحانه الذي بيده النصر والتوفيق ، وأنه لو وكل عباده إلى أنفسهم والأسباب التي في أيديهم لضاعوا وهلكوا وخسروا ؛ ولذلك فلا يجوز بحال أن يغفل عن هذا الأمر المهم من أعمال القلوب لأنه أساس في نزول نصر الله عز وجل وتسخير الله تعالى جنود السموات والأرض لعباده المصلحين إذا وصلوا إلى هذا المستوى من الإيمان والاخلاص والعمل الصالح وبذل ما في الوسع في الدعوة والإصلاح وابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة في ذلك كله .

وإن من أهم ما يتواصى به أهل الحق ويعد شرطاً في النصر والتمكين هو وحدة الصف واجتماع الكلمة ، ونبذ الفرقة والحزبية المقيتة ؛ إذ إن نصر الله عز وجل وتأييده لا ينزل على صف متفرق متنازع لدلالة ذلك على وجود الهوى وحظ النفس ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] ونظراً لأن الدعوة إلى الحق والتواصي به ونشره بين الناس تكتنفه المشاق والمكاره والعقبات والابتلاءات ؛ فقد جاء الأمر بالأصل الرابع من أصول النصر والتمكين وبدونه يضعف الحق وأهله

ألا وهو :

٤- التواصي بالصبر :

إن الصبر والتواصي به أساس في العمل بالحق والدعوة إليه وأساس في التمكين لأهل الحق ونزول نصر الله عز وجل عليهم إذ إن طريق الدعوة إلى الله عز وجل وإلى دينه الحق تعترضه الابتلاءات والتمحيص وتمييز الصفوف فإذا لم يوجد الصبر الذي يواجه به تكاليف إقامة الحق ويواجه به أنواع الابتلاءات والفتن التي يتعرض لها دعاة الحق فإن نصر الله عز وجل بعيد لعدم وجود القاعدة الصلبة التي استعلت على الابتلاءات وأخذت بأسباب الصبر والثبات ، والعكس من ذلك إذا وجد الصبر والتواصي به ، وتميز الصابرون والمؤمنون حقاً عن المنافقين وضعاف الإيمان ، وبذل الصابرون ما في وسعهم من الجهد والجهاد والأخذ بالأسباب فعندها ينزل نصر الله عز وجل ويهيء الله سبحانه لأوليائه أسبابه ويسخر لهم ما يشاء من جنود السموات والأرض ، ولكن أين الذين يسخر الله تعالى لهم ذلك كله ؟ نسأل الله تعالى أن نكون منهم .

الخـــــاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبنعمته وتوفيقه منَّ عليَّ بإنهاء هذه الدراسة الهامة لهذه السورة العظيمة وما فيها من الدروس والوقفات المهمة التي اشتملت على بيان أصول النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة ، كما اشتملت على ذكر بعض الوقفات التربوية المتعلقة بهذه الأصول ، ويحسن في خاتمة هذا البحث تلخيص أهم المسائل والوقفات التي وردت في مباحثه ، وذلك من خلال النقاط التالية :

الأولى :

تبين لنا من هذه الدراسة أهمية سورة العصر وما اشتملت عليه من الأصول الأربعة للنجاة في الدنيا والآخرة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر . ولذا قال الشافعي رحمه الله تعالى : (لو فكر الناس في هذه السورة لوسعتهم) ، وجاء عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا لا يتفرقون إذا لقي بعضهم بعضاً حتى يقرأوا سورة العصر وما ذلك إلا لما اشتملت عليه من الوصايا العظيمة .

الثانية :

تبين لنا من إقسام الله عز وجل بالعصر أهمية العصر وهو الدهر الناشئ عن تعاقب الليل والنهار وأن عمر الإنسان وحياته تنصرم بمرور الوقت وأن العبد إذا لم يملأ هذا الوقت الذي هو حياته ورأس ماله بما ينجيه من عذاب الله عز وجل فإنه خاسر هالك وقد مر بنا في تفسير كلمة العصر أهمية الوقت في حياة المسلم وكيف كانت حياة سلفنا الصالح في حفظ أوقاتهم وعمارتها بما ينفعهم في الدار الآخرة وينجيهم من عذاب الله عز وجل .

الثالثة :

تبين لنا نوع الخسران الذي يلحق بالعبد إذا لم يأت بأصول النجاة المذكورة في السورة وذلك أن الخسر خسران :

١- **الخسر المطلق** **٢- ومطلق الخسر** .

فمن لم يأت بهذه الأصول الأربعة أو لم يأت بأصل الإيمان ولا جنس العمل الصالح فهو الخاسر خسراً مطلقاً ومن الخالدين في النار .

أما من أتى بالإيمان وجنس العمل الصالح ولكن لم يتصف بالتواصي بالحق ولا بالتواصي بالصبر فإن خسره من جنس مطلق الخسران المذي لا يخرجه من الإيمان ولا يخلده في النار ولو عُذب بسبب

هذا الخسران فإنه يؤول إلى الجنة في نهاية الأمر .

كما تبين لنا في مقابل ذلك أسباب الربح والنجاة وأن كملهما لا يتحقق إلا عند من أتى بصفات الناجين الأربعة المذكورة في السورة فمن كملها في نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكملها بدعوة غيره بأن تواصى بالحق وتواصى بالصبر فقد حصل له الربح المطلق والنجاة التامة من عذاب الله تعالى ، ومن لم يكملهما لم يكمل له الربح والنجاة وإنما ينقص عليه من ذلك حسب ما تخلف عنده من هذه الصفات .

الرابعة :

تبين لنا معنى الإيمان المطلوب في هذه السورة وأن المقصود به أصوله الستة في آية النساء وحديث جبريل عليه السلام وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

كما اتضح لنا تفاصيل الإيمان بكل أصل من هذه الأصول وآثار الإيمان به ونواقضه التي من تلبس بها فقد انتقض إيمانه بهذا الأصل وبالتالي انتقض الإيمان من أصله .

كما تم التطرق لحقيقة الإيمان ومعناه عند أهل السنة والجماعة وأنه قول وعمل وأن هذه العقيدة وسط بين المرجئة الذين لا يرون العمل من الإيمان ، وبين الخوارج الذين يُكَفِّرون مرتكب الكبيرة ويحكمون

عليه بالخلود بسببها في النار لو مات منها بدون توبة ، كما اتضح لنا في مقابل ذلك معنى الكفر وأقسامه وحدوده .

الخامسة :

تبين لنا معنى العمل الصالح الذي هو الأصل الثاني من أصول النجاة وأنه يقوم على ثلاثة أسس :

١- الإيمان ويضاده الشرك .

٢- الإخلاص ويضاده الرياء .

٣- المتابعة للرسول ﷺ ويضادها الابتداع والتعبد بمالم يأذن به الله عز وجل ، فلو تخلف في أي عمل واحد من هذه الشروط فلا يعد صالحاً .

كما تبين لنا في العمل الصالح أفضله وأحبه إلى الله عز وجل ، وأثر العمل الصالح في دخول الجنة وأنه سبب في رحمة الله عبده ورضاه عنه وليس عوضاً ومقابلاً للجنة .

كما تبين أن على القلب واللسان والجوارح أعمالاً صالحة وعبوديات واجبة ومستحبة سبق تفصيلها في مباحث الرسالة .

كما تبين لنا ثمار العمل الصالح وبركته في الدنيا والآخرة .

السادسة :

تم تفصيل القول في معنى الحق وما معنى التواصي به وما أثره في النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة ، كما تم الحديث عن عدة مسائل مهمة تتفرع من التواصي بالحق .

منها : أن أصول النجاة المذكورة في السورة تنطلق كلها من الحق وتدور عليه ؛ فهي علم بالحق (وهو الإيمان) ، وعمل بالحق وهو (العمل الصالح) ، ودعوة إلى الحق وهو (التواصي بالحق) ، وصبر على الدعوة إلى الحق وهو (التواصي بالصبر) .

كما ظهر لنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى هو أصل التواصي بالحق كما تبين لنا من كلمة التواصي مشقة لزوم الحق والثبات عليه وأن في طريقه من العوائق ما يحتاج إلى التواصي والتكاتف .

السابعة :

تبين لنا من قوله تعالى :﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أهمية الجماعة والتعاون على البر والتقوى وأن الحق لا ينتشر ويسود بين الناس إلا بجماعة تبذل الجهود المشتركة في تعلمه وتعليمه ونشره بين الناس والصبر على تكاليفه ، وهذا لا يتم إلا بالتواصي والتعاون على ذلك كله .

الثامنة :

تبين لنا من قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أثر الصبر في الثبات على الحق علماً وعملاً ودعوة إليه ، وأن ذلك كله لا يتم إلا بتواصي أهل الحق على الصبر والثبات عليه ، وقد تم إفراد بعض المسائل المهمة والمتعلقة بالتواصي بالصبر .

ومنها تفصيل القول فيما يعين على الصبر ، وما هو الصبر النافع لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وما هي الأمور التي تضاد الصبر وما هي الأمور التي يُتواصى بالصبر عليها ، ومدى حاجة الدعاة والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر للصبر والتواصي عليه ، كما تم ذكر بعض الآيات والأحاديث وآثار السلف ومواقفهم والتي فيها الحث على الصبر والتواصي عليه ، مع مسائل أخرى لها علاقة بالتواصي بالصبر .

الوقفة الأخيرة :

ترسم هذه السورة الكريمة أصول محاسبة النفس ومراقبتها وذلك بعرض العبد نفسه على هذه السورة ومدى قربه وبعده من صفات أهل النجاة المذكورة فيها .

ومن خلال ما سبق من تحديد أصول النجاة يتبين لنا أصول المحاسبة التي لا بد أن يعرض العبد نفسه عليها ويحاسبها عليه وذلك كما يلي :

١- محاسبة النفس في مدى علمها بالحق وفهمها له وإيمانها بأصول الإيمان الستة كما جاء عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام .

٢- محاسبة النفس في مدى عملها بالحق وامتثالها لما أمر الله عز وجل به وانتهائها عما نهى عنه من ظلم النفس والعباد وما مدى تحقق الإخلاص والمتابعة في ما يقوم به من الأعمال فعلاً وتركاً .

٣- محاسبة النفس في مدى تواصيها بالحق ودعوتها إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاهتمام بأمر الدين .

٤- محاسبة النفس في مدى صبرها وثباتها على الحق علماً وعملاً ودعوة إليه .

وختاماً : أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل النجاة والفوز المذكورين في هذه السورة الكريمة الذين علموا الحق وعملوا به ودعوا إليه وتواصوا به وتواصوا بالصبر على ذلك كله ، وتأسياً بأصحاب الرسول ﷺ أذكر نفسي وإخواني بآيات هذه السورة العظيمة حيث كانوا يودعون بعضهم بعضاً بها :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الجمعة ١٤٢٠/١٢/٤هـ.

فهرس المجلد السابع

المقدمة ٥
المبحث الأول : المعنى المجمل للسورة : ١١
– بيان معنى المقسم والمقسم عليه ١١
– مسائل تتعلق بالسورة :
• مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها ١٣
• في تحقيق نوع الخسران ١٤
• ثلاثة أوجه في فائدة ذكر التواصي بالحق والصبر بعد الإيمان والعمل الصالح ١٧
المبحث الثاني : في مسائل تتعلق بتفسير كلمة (العصر) :
– تحقيق أقوال المفسرين في أنه الدهر والزمان ٢٢
– مناسبة القسم بالعصر لموضوع السورة ٢٥
– في ذكر طرف من مواقف السلف في الحرص على الوقت :
• في معنى حديث ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس)) ٢٩
• من أقوال الحسن البصري رحمه الله وغيره ٣٠
• موقف ابن الجوزي من زواره ٣٣
• استدلال ابن القيم بقول الله عز وجل :﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾ ٣٥
• قول الشيخ السعدي رحمه الله ٣٧

المبحث الثالث في أصول النجاة في هذه السورة ٤٠

الأصل الأول من أصول النجاة (الإيمان)

– مقدمة في :

- معنى الإيمان ومنزلته من الأعمال ٤١
- تعريف مسمى الإيمان عند أهل السنة ٤٣
- أشهر تعريفات السلف للإيمان ٤٣
- جمع ابن تيمية بين هذه الأقوال ٤٤
- تنبيه ابن تيمية وابن القيم إلى الفرق بين قول القلب وعمل القلب ٤٦
- **وجوب الإقرار باللسان** ٤٨
- أعمال الجوارح شطر في الإيمان ٤٩
- احتجاج الأئمة بآية سورة البينة ٤٩
- الإتيان بجنس العمل شرط في صحة الإيمان ٥٠
- **الفرق بين أهل السنة وبين المرجئة والخوارج في علاقة العمل بالإيمان** ٥١
- **تعريف الكفر عند أهل السنة** ٥٣
- **تنبيه حول اقتران الإسلام بالإيمان** ٥٤

تفصيل أركان الإيمان الستة

– الركن الأول : الإيمان بالله عز وجل : ٥٦

– أولاً : الإيمان بوجوده عز وجل ٥٦

• **الدليل العقلي** ٥٦
• الدليل الفطري ٥٨
• الدليل الشرعي ٥٨
– **ثانياً : الإيمان بربوبيته تعالى ومعناه** ٥٩
– **ثالثاً : الإيمان بألوهيته سبحانه** ٦٠
– **رابعاً : الإيمان بأسمائه وصفاته معناه وأصوله** ٦٢
– **من نواقض الإيمان بالله عز وجل :**
• نواقض تتعلق بإنكار الربوبية ٦٤
• نواقض تتعلق بإنكار الألوهية ٦٥
• نواقض تتعلق بإنكار أسمائه وصفاته ٦٦
• الفرق بين إنكار التكذيب وإنكار التأويل ٦٦
• معنى الإلحاد في الأسماء والصفات ٦٧
الركن الثاني الإيمان بالملائكة : ٦٩
– معنى الإيمان بالملائكة ٦٩
– **نواقض الإيمان بالملائكة** ٧٢
– **آثار الإيمان بالملائكة ولوازمه** ٧٢
الركن الثالث الإيمان بالكتب :
– **معنى الإيمان بالكتب** ٧٤
– **كيفية الإيمان بالأخبار التي في الكتب** ٧٤
– **كيفية الإيمان بالكتب بالنسبة للأحكام** ٧٥
– **قول النووي في معنى النصح للقرآن** ٧٦

- من نواقض الإيمان بالكتب ٧٧
- من آثار الإيمان بالكتب ٧٨

الركن الرابع من أركان الإيمان :

الإيمان بالرسل : ٧٩
- معنى الإيمان بالرسل ٧٩
- من لوازم الإيمان برسولنا محمدﷺ ٨٠
- من نواقض الإيمان بالرسل ٨١

الركن الخامس الإيمان باليوم الآخر : ٨٣
- **معناه** ٨٣
- **ما يدخل ضمن الإيمان باليوم الآخر :**

١- فتنة القبر ٨٣
٢- عذاب القبر ونعيمه ٨٤
٣- البعث بعد الموت ٨٥
٤- محاسبة الخلائق على أعمالهم ٨٥
٥- نصب الموازين ٨٦
٦- نشر الكتب ٨٦
٧- الحوض ٨٧
٨- الصراط ٨٧
٩- الشفاعة وأنواعها ٨٧
- إنكار المعتزلة والخوارج للشفاعة العامة ٨٨
- شروط الشفاعة المثبتة ٨٨

١٠- الجنة والنار ٨٩
- من آثار الإيمان باليوم الآخر وثمراته ٩٠
- من نواقض الإيمان باليوم الآخر ٩١
الركن السادس الإيمان بالقدر خيره وشره ٩٤
- معنى الإيمان بالقدر ٩٤
- مراتب الإيمان بالقدر :
• المرتبة الأولى : العلم ومعناه ٩٤
• المرتبة الثانية : الكتابة ومعناها ٩٥
• المرتبة الثالثة : المشيئة ومعناها ٩٦
• المرتبة الرابعة : خلق أفعال العباد ٩٧
- من ثمرات الإيمان بالقدر ١٠٠
- من نواقض الإيمان بالقدر ١٠١
الأصل الثاني من أصول النجاة (العمل الصالح)
- شبهة للمرجئة في فصل الإيمان عن العمل ١٠٣
- رد ابن تيمية على هذه الشبهة ١٠٣
مسألة تتعلق بالعمل الصالح : ١٠٥
المسألة الأولى : المراد بالعمل الصالح ١٠٥
- أحوال ذكر العمل الصالح منفرداً ومقروناً بالإخلاص أو الإيمان ١٠٦
- شروط العمل الصالح ١٠٩
المسألة الثانية : الوظائف التي على القلب واللسان والجوارح
الوظائف التي على القلب من العبودية : ١١١

- عبودية القلب الواجبة والمستحبة ١١١
• الفرق بين النية والإخلاص ١١١
•الفرق بين الإخلاص والصدق ١١١
- المحرمات التي على القلب أشد تحريماً من معاصي الجوارح ١١٢
الوظائف التي على اللسان من العبودية : ١١٤
- اختلاف السلف هل يدخل المباح في أحكام اللسان ١١٥
- **عبوديات الجوارح الخمسة** ١١٨
المسألة الثالثة : أساس التفاضل بين الأعمال الصالحة : ١٢٨
- شرح حديث ((**ما تقرب إلَّي عبدي** ..)) ١٢٨
- أصناف أهل التعبد المقيد ١٣١
- تحقيق ابن القيم لأصل التعبد المطلق ١٣٤
- قول ابن رجب في أصل المداومة والاقتصاد ١٣٨
المسألة الرابعة : أثر العمل الصالح في دخول الجنة والنجاة من النار ١٤٠
نقض ابن القيم رحمه الله على الجبرية والقدرية ١٤٨
المسألة الخامسة : من ثمرات العمل الصالح ١٥٢
تقرير ابن القيم لأصل ((الجزاء من جنس العمل)) ١٥٧
الأصل الثالث من أصول النجاة (التواصي بالحق)
معنى التواصي بالحق ١٦٣
مسائل تتعلق بهذا الأصل :
- المسألة الأولى : في عطف التواصي بالحق على العمل الصالح ... ١٦٧

- المسألة الثانية : في سبب ذكر التواصي بالحق ضمن أصول النجاة ١٦٨
- المسألة الثالثة : في معنى صيغة الجمع (**تواصوا**) ١٦٨
- المسألة الرابعة : الحق معترضٌ بالعقبات ١٧٠
من الأسباب الصادة عن الحق ١٧٣
- المسألة الخامسة : انقسام الناس إزاء الحق ١٧٦
- المسألة السادسة : صور وعلامات للمتواصين بالحق : ١٧٩
• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول النجاة ١٧٩
- بعض المواقف المشرقة لسلفنا الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :
• إنكار أبي سعيد الخدري ﷺ على مروان ١٨٢
• الإمام أحمد رحمه الله ١٨٤
• الإمام النووي رحمه الله ١٨٥
• كلمة حق للشيخ أحمد شاكر رحمه الله ١٨٧
• التجرد في قبول الحق ١٩٢
• ترك التعصب ١٩٣
• المناصحة بين المسلمين ٢٠٠
• تعليم الناس دينهم الحق ٢٠٢
عقوبة رد الحق ٢٠٥
الأصل الرابع من أصول النجاة (التواصي بالصبر)
معنى الصبر لغة وشرعاً ٢٠٨

مسائل في التواصي بالصبر :

– المسألة الأولى : ذكر التواصي بالصبر في الآية من باب ذكر الخاص بعد العام ٢٠٩
– المسألة الثانية : التواصي بالصبر نوعان ٢١٠
– المسألة الثالثة : سر الارتباط بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر ٢١٢
– المسألة الرابعة : الاقتران بين الصبر والمرحمة ٢١٣
– المسألة الخامسة : على أي شيء يكون الصبر ٢١٥
– المسألة السادسة : شروط تحقيق الصبر المرضي عنه ٢١٧
– المسألة السابعة : الصبر وسط بين خلقين ذميمين ٢٢٠
– المسألة الثامنة : الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام ٢٢١
– المسألة التاسعة : لزوم التواصي بالأسباب المعينه على الصبر .. ٢٢١
• الأمر بالصبر في القرآن والسنة ٢٢٥
• من أقوال ومواقف بعض السلف في الصبر والمصابرة ٢٢٨
– المسألة العاشرة : دوام حاجة العبد إلى الصبر ٢٣٥
– المسألة الحادية عشرة : في مواساة المسلمين ٢٣٩
– المسألة الثانية عشرة : الصبر يكون على السراء والضراء ٢٤١
– المسألة الثالثة عشرة : في الحذر من مظاهر التسخط والجزع ... ٢٤٣
– المسألة الرابعة عشرة : الصبر عند الغضب ٢٤٨
وقفة أخيرة مع السورة : ٢٥١
الأصول الأربعة في سورة العصر هي أصول التمكين في الأرض ... ٢٥١

العلاقة بين سورة العصر وآية سورة النـــور ٢٥٢
الـــخـــاتـــمة ٢٦٢
فهرس الموضوعات ٢٧١

* * *